الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابراهيم اليازجي

١ - إبراهيم اليازجي الشاعر

- في المدح

السماك الأعزل

قال يمدح صبحي باشا أحد وزراء الدولة العثمانية :

هذا وزيرُ المُلكِ ذو الشَّرَفِ الذى ... أَزْرَى الثريَّا والسِّماكَ الأَعزَلا (١)
أَمْضَى من السَّهْمِ المذلَّق نظرةً ... فى كلِّ معظمةٍ وأفتكُ مَقْتَلا (٢)
وأَسَدُّ مَنْ عَرَكَ الأُمورَ تصرُّفاً ... فى حين لا يجدُ اللَّبيبُ مُعَوَّلا (٣)
وَلِيَ البلادَ فكانَ فيها عَدْلُه ... ظِلاًّ وكانَ الأَمْنُ فيها مَنْهَلا
أبَدًا يُراعيها بطَرْفٍ ساهرٍ ... حَلَفَ الحِفاظُ عليهِ ألا يَغْفُلا
فَصْلُ الخِطابِ إذا قضَى وإذا انبَرَى ... يحكى بهمَّتِه القَضاءَ المُنزَلا
وإذا يفوهُ تأثَّرتْ من لفظهِ ... دررٌ تقلَّدُها المعاصمُ والطُّلى (٤)
تهوى النفوسُ عليه مِنْ ألطافِهِ ... فتردُّها عَنْه المهابةُ والعُلَى

* * *

(١) أزرى : ارتفع . الثريا : اسم لمجموعة من النجوم . السماك : نجم نير ومنه السماكان الأعزل والرامح نجمان نيران .

(٢) المذلق : الماضى بسرعة .

(٣) عرك الأمور : خبر الأحوال واحتنك بها .

(٤) تقلدها : تتقلدها . المعاصم : ما فوق الكف من اليد ، الطلى : العنق .

حاولت أن أُثنى عليك فخاننى — قلَمٌ أراهُ غدا بكفِّى مِغزَلا[1]
فرأيتُ مدحَكَ لا تَفِيهِ عبارةٌ — ورأيتُ مدحَ الأَكْثرين تَمحُّلا[2]
وعدلتُ تقصيرى بوصفِكَ عاجزًا — وعلمتُه فعَذَرْتَنى مُتَفَضِّلا
ولعلَّ عَجزى فى مديحِكَ ناطقٌ — عَنّى بأَفْصَحَ من ثناىَ وأَطْوَلا[3]
والصُّبْحُ أَوْضحُ من مقالةِ قائلٍ — لاحَ الصَّباحُ إذا تألَّقَ وانْجَلَى[4]

حكمة المعبود

وقال يمدح جلالة أوسكار الثانى ملك أسوج ونروج ويذكر قدوم أحد أنجاله إلى المشرق سنة ١٨٩٠ م ويشير إلى نوط العلوم والفنون الذى أهداه إليه :

ملكٌ أَحَلَّتْهُ أسوجُ وذكرهُ — يطوى من الآفاقِ كلَّ بعيدِ[5]
ضَمّ الصَّفائِحَ والصَّحائف فى يد — ضمّت من الأَخطارِ كلَّ مَجيدِ[6]
فأَصابَ فى الأَملاكِ أَشهرَ موضعٍ — وغَدا لأَهْلِ العلمِ خير عَميدِ

* * *

ولقد سننتَ لكلِّ فضلٍ مَنْهَجًا — بك أهلُه تأتَمُّ هدىَ رشيدِ[7]
ورفعتَ بَنْدَ العِلْمِ فاحتشدَت به الـ — علماءُ تحت لِوائِك المعقودِ[8]

---

(١) المغزل : آلة لغزل الصوف والقطن خيطاناً .
(٢) التمحل : طلب الشيء بحيلة وتكلف .
(٣) ثناى لغة فى ثنائى : مدحى .
(٤) تألق : لمع . انجلى : وضح وظهر .
(٥) الآفاق جمع الأفق : ما بعد عن النظر بحيث ترى آخر الفضاء ملاصقاً للأرض .
(٦) الصفائح : كناية عن السيوف .
(٧) المنهج : الطريق .
(٨) البند : العلم واللواء .

نَزَلُوا على كَنفٍ كريمٍ عنده   نَعِمُوا بظلٍّ من نَداكَ مَديدِ[1]
وأَنَلْتَهُمْ شرَفاً بهِ حَمِدُوا الذى   أَلِفُوهُ مِن نَصَبٍ ومن تسهيدِ[2]
وتعرَّفتْ فيك العــلومُ بأنَّها   فخرٌ لكلِّ مسوِّدٍ ومَسُودِ

* * *

ولقد كسانى حسنُ رأيكَ حُلَّةً   غَضَّتْ محاسنُها عُيونَ حَسُود
قلَّدْتَنى فخرًا غدا لى حجَّةً   فتناولوا البرهانَ من تقليدى
رسمٌ رأيتُ بهِ جَلالَك ماثِلاً   فنكصتُ بين مَهابةٍ وسُجُودِ[3]
شرفٌ لِصَدْرى وهو أرْفَعُ منزلا   من أنْ يحلَّ بلبَّةٍ أو جيــدِ[4]
فَلَكَ الثنــاءُ علىَّ مدحةَ منعمٍ   ما إن يقابَلُ فضلهُ بجُحُودِ[5]
قصَّرتُ فى مدحيكَ حتى تاحَ لى   قدر الوفا فنشطتُ بعد قُعودى

* * *

ورأيتُ رَسمَكَ فى أجلِّ مصوّرٍ   رسمتك فيه حكمةُ المعبودِ[6]
فرعٌ لدوحتِكَ الشريفة قد أتى   من عزِّك المرفوعِ تحتَ بُنُودِ[7]
ريَّان تقدمه السّعودُ إذا مشى   ويُحَفُّ من ملإِ السَّما بجنود

---

(١) الكنف : الجانب .
(٢) التسهيد : السهاد والأرق .
(٣) نكص : رجع وتأخر .
(٤) اللبة : المنحر ، موضع القلادة من الصدر .
(٥) الجحود : نكران النعمة .
(٦) أى أنه صورة طبق الأصل عن أبيه .
(٧) الدوحة : الشجرة العظيمة استعيرت للأسرة المالكة . بنود جمع البند : العلم واللواء .

شخصتْ لموكبهِ العُيونُ فأبصرتْ بدرًا تـألّق فى غَمام ٍ وفودِ (١)
ولقد أقولُ لثغرِ بيروتَ ابْتِسمْ بلقـــاءِ أبناءِ الملوكِ الصِّيدِ (٢)
وافاكَ مَنْ طربت لمقدمِه رُبى لبنانَ فاتَّشحَتْ ببيضِ بُرودِ
هذا ابنُ أسكارَ العظيم قد انْجَلتْ بالسَّعْدِ غرّة نجمه المرصودِ (٣)
نعشتْ بشائرهُ المُنَى فتهلَّلتْ قبل اللّقـــاءِ بوفده الموعودِ
وافَى فحيَّاهُ سُهيلُ ورفرف الـ ـنسرُ المجيد مصفّقاً فى العودِ (٤)
هو صفْوَةُ الشرف العريقِ مسلسلاً من عهـــدِ آباءِ لهُ وجُدود

ب ـــ فى الرثاء

حكم الأقدار

من قوله فى صباه يندب أخاه الشيخ حبيباً الذى قضى شاباً وأثرت وفاته فى والده فتوفى بعده بزمن قليل :

* * *

سَأَبْكى عليه كُلَّما لاَحَ بارقٌ برابِيَةٍ فاسْتمطرَ الدّمْعَ لائِحُهْ (٥)
وأَنْدبُ ما ناحَ الحمَامُ فهيَّجت بلابلَ قلبى للشُّجُونِ مَنائِحُهْ (٦)

---

(١) تألق : لمع .
(٢) الصيد جمع الأصيد : الملك ، وأطلق عليه لأنه لا يلتفت زهوه يميناً ولا شمالا .
(٣) غرة : طلعة .
(٤) سهيل : اسم لنجم . وفى البيت تورية فى قوله النسر يراد به النسر الواقع وهو اسم النجم أو الطائر المعروف .
(٥) لاح : ظهر . الرابية : المرتفع من الأرض .
(٦) الشجون : الأحزان .

«حبيب» شجى قلبي المبرّحَ نَعْيُهُ ... فأوجعَ لمّا صاح بالويلِ صائحُه (١)
وأدركني ما لم أكنْ متوقِّعاً ... وذلك أولى ما تخافُ نوائحُهْ (٢)
وإنْ يكُ أمْسَى مفردًا في ضريحهِ ... فقد كَثُرتْ بينَ القلوبِ ضرائحهْ
«حبيب» له في الحبِّ عندي ومواثِقٌ ... تقومُ بهِ طَيَّ الفُؤادِ بوارحُهْ
أريحانَ نفسي أذهبَ الدّهْرُ أُنسَها ... وقرّةَ جفني بعدكَ الدّمْعُ قارحُهْ (٣)
وكنّا يدًا في الدّهْرِ حتّى أصابنا ... بخطبٍ تلقّاني وإيّاك جامِحُهْ (٤)
ويوم تلقّاني فضيّع شؤمُه ... بقيّــةَ أيّامي بما جرَّ نائِحُهْ

* * *

ولا بُدَّ لِلإلفَيْن مِنْ يومِ فجعةٍ ... تَحمَّلها الباقي فطالتْ بوارِحُهْ
إذا أمضتِ الأقدارُ قاطعَ حُكمِها ... تضيقُ على ليثِ الفلاةِ مسارحُه (٥)
عليه سلامُ اللهِ ما لاحَ بارقٌ ... وعاهدَهُ غادي السَّحاب ورائِحُهْ

عبرة الأقلام

وقال يرثي الأمير محمد أرسلان وقد توفي في القسطنطينية :

حياةٌ أسرُّ العيشِ فيها مُذمَّمُ ... وناسٌ بها قلبُ الخليِّ مُتيَّمُ (٦)

---

(١) شجى : أحزن .
(٢) النوائح جمع النائحة : الباكية على الميت .
(٣) قرة العين : سرورها .
(٤) الخطب : المصاب .
(٥) الليث : من أسماء الأسد .
(٦) الخلي : الخالي من الهم .

سقتْ كلَّ قلبٍ كلَّ يومٍ مشارِباً ... توهَّم فيها لذَّةً وهىَ عَلْقَمُ (١)
تشاغلتِ الألبابُ فيها من الصِّبى ... ولم تَكُ أدنى صبوةً حينَ تحلُمُ (٢)
تبطَّلَ كلٌّ بالأمانى ولَمْ يزلْ ... يروحُ ويغْدو وَهْوَ للموتِ مَغْنَمُ
وما الأرْضُ إلاَّ قَفْرَةٌ زأرتْ بِها ... أسودُ المنايا حَوْلنا وهْىَ حُوَّمُ (٣)
لها كلَّ يومٍ بيننـــا كُلُّ مُنْذِرٍ ... يُنادى عَلينامُسْمِعًا وهو أبْكَمُ (٤)
تُنَبِّهُنَا بَعضاً ببعْضٍ فننْثنى ... وأجفانُنـــا فى غفلةِ اللَّهوِ نُوَّمُ
خَلتْ دُونها شمُّ الحصونِ فَلَمْ تَكُنْ ... لساكِنِها مِنْ غارَةِ البَيْنِ تَعْصِمُ (٥)
وأصبحَ مَنْ قد كانَ يُرهَبُ بَأْسُهُ ... يُناحُ عليهِ بعد حينٍ ويُرْحَمُ (٦)
ترابٌ من الأرْضِ اسْتَوَى تحت صورةٍ ... تلوحُ عليها مُدَّةً ثُمَّ تُهْدَمُ
سلامٌ على قبرٍ توسَّد تُربَهُ ... حبيبٌ عليه مِنْ بعيدٍ أُسَلِّمُ (٧)
وما كانَ يُغنى لو تَدانى ودونَهُ ... مِنَ الرَّمْسِ قدأمسى حجابٌ مخيِّمُ (٨)
لَئِنْ لم تصبْ عينى ثراهُ فإنَّ لى ... هُنالِكَ قلباً مِنْهُ قد قَطَر الدَّمُ
وما جَفَّ دمعى بعدَه غير أنَّهُ ... يُدمِّجُ خضراءَ الرُّبى حينَ يسجمُ (٩)
نعاه لنا النَّاعى ففى كلِّ مَسْمَعٍ ... كلامٌ ولكن فى الأضالعِ أسْهُمُ (١٠)

---

(١) العلقم : اسم لنبات شديد المرارة .
(٢) الألباب : جمع اللب : القلب . تحلم : تصير إلى الحلم ، الفتوة .
(٣) زأرت : صاحت بها الأسود، والزئير صوت الأسد . المنايا : جمع المنية ، الموت .
(٤) الأبكم : الأخرس .
(٥) شم الحصون : الحصون العالية . تعصم : تحفظ .
(٦) بأسه : شدته وقوته .
(٧) توسد : تمدد .
(٨) الرمس : القبر .
(٩) يسجم : يقطر ويسيل وهو مختص بالدمع وسحابة الماء .
(١٠) المسمع : الأذن .

تَنوحُ عَلَى فقدِ الأَمير محمَّدٍ رِجالٌ عليهِ بالدِّما تتلثَّمُ
عزيزٌ له فى كلِّ عينٍ مدامعٌ وفى كلِّ قلبٍ جمْرَةٌ تتضرَّمُ[1]
وكم مِنْ جيوبٍ بل قلوبٍ تَشَقَّقتْ عليه وكَمْ مِنْ أوجهٍ فيه تلطَمُ[2]
ولمَّا نُعى فى أرض لبنانَ أوشكتْ جنادلُه من حسرةٍ تتألَّمُ[3]
كريمٌ له من آلِ رسلانَ محتدٌ ومن نفســـه مجدٌ سنىٌّ معظَّمُ
ومن ذكره ما يعجز الدَّهرَ سلبُهُ ومِنْ شكرهِ فى كلِّ ذى منطقٍ فمُ
أيا مَنْ قضى فى غربةِ الدَّارِ نازِحاً فكلُّ فؤادٍ نازحٌ متصرِّمُ[4]
رُويدَك ماللصَّبْرِ بعدك مِنْ يدٍ إذاماقتضى الصَّبْرَالمصابُ العرمرَمُ[5]
ترحَّلت فى شرخِ الشَّباب مغادِرًا من الحزنِمايودى الشَّبابَ ويُهرِمُ[6]
ومثلُك مَنْ حَقَّ لتأَسُّفُ بعدَهُ وغيرُك مخلوفٌ ومثلُك يُعدَمُ
تنوح القوافى بَعدَ يومِك حسرَةً فتوشكُ نُخشى نثرَهاحين تنظمُ[7]
وتَندبُك الأَقلامُ من حيث ردَّدت حنيناً وأجرَتْ عبرَةً حينَ تَرقمُ[8]
وبيْن المذاكى والسُّيُوفِ مناحَةٌ وبَيْنَ الحجى والعلمِ والمجدِ مأْتَمُ[9]
ألاَ يا بنى رسلانَ صبرًا لفقدِه فذلك مِمَّا يَقتضيه التكرُّمُ

---

(١) تتصرم : تنقطع .
(٢) الجيوب جمع الجيب : وهو من القميص الموضع المقور .
(٣) جنادله : جمع الجندل ، الصخر .
(٤) النازح : المبتعد عن داره .
(٥) العرمرم : الكثير الصاخب .
(٦) شرخ الشباب : أوله .
(٧) القوافى : القصائد من باب تسمية الجزء باسم الكل .
(٨) عبرة : دمعة .
(٩) المذاكى : الخيل الحجى : العقل . المأتم : مكان الندب على الميت .

إذا ما دُفِعنا للبليَّةِ مَرَّةً ... ولم ننتفِع بالحزن فالصَّبْرُ أحْزَمُ
جرى قدرُ المولى بِما شاءَ واسْتَوى ... لديهِ جَزوعٌ فى الأسى ومُسَلِّمُ (١)
وليس لنا من مطمعٍ فاتَ نيلُهُ ... إذا كانَ ما نبغيهِ ما ليسَ يُغْنَمُ
وما كان ما لا بُدَّ منه مؤخَّرًا ... يهونُ لديه الرُّزْءُ وهو مُقدَّمُ (٢)
وما الفرقُ فى الحالين إلاَّ هنيهةٌ ... تَمرُّ سريعاً والقضاءُ محتَّمُ

ج – فى الوصف

الجماد الحىّ

قال يصف المحرك المائى الذى اخترعه يوسف إيلياس المهندس فى بيروت لما احتفل به فى محلة الجناح سنة ١٨٨٧ م .

عُجْ بالجناحِ وقُلْ لليعملاتِ قفى ... وَحَيِّهِ بلسانِ الشيِّقِ الكلِفِ (٣)
وسرّحِ الطَّرْفَ فى ما فيه من عجبٍ ... يلهو بهِ الصبُّ عمَّا فيه مِن شَغَفِ (٤)
هذى هى التحفةُ الغرّاءُ قد برزتْ ... للنَّاظِرينَ فأروتْ غُلَّةَ اللَّهِفِ (٥)
محرّكٌ أبدًا يجرى الحراكُ بهِ ... على أتمِّ نظامٍ غير مختلفِ
هو الحياةُ بهِ يحيا الجمادُ فلو ... يناطُ يوماً بقلبِ الحىّ لم يقفِ (٦)

---

(١) جزوع : فاقد الصبر . والأسى : الحزن .
(٢) الرزء : المصاب .
(٣) اليعملات : جمع اليعملة : الناقة السريعة . الشيق : المشتاق . الكلف : المغرم .
(٤) الصب : العاشق . الشغف : الحب الشديد .
(٥) برزت : ظهرت . الغلة : شدة العطش .
(٦) يناط : يربط ويعلق .

بهانجلتْ قدرةُ الإنسانِواتّضَحتْ ... مزيَّة الخَلَف الباقى على السَّلَفِ
وأَصْبَحَ الشَّرقُ مِنْ زَهْوٍ يجرُّ بهِ ... على المغاربِ ذَيلَ الفخرِ والشَّرفِ

زهر الياسمين

وقال يصف زهر الياسمين :

انظر لزهرِ الياسمينِ وقد بدَتْ ... أوراقُه فى الروضِ كالغصنِ الندى
شبّهتُه بقلائد من فضّةٍ ... سقطت فصادتها سهامُ زمرّدِ(١)

الزُّهَرَةُ٢

أولع الشيخ بعلم الفلك فشى به شوطاً محموداً وقد سره منظر الزهرة وهى معبود الأوائل فقال يناجيها ويتحدث إليها متسائلا عما فى أرضها من بشر :

قِفْ بى نُحَىِّ رُباها أَيُّها الحادى ... فتلك أَبْيَاتُها فى عُدْوَةِ الوادى(٣)
قَدْ خيَّمت باللِّوى الغربىِّ ضاربةً ... عليه أَطنابَهـا مِنْ غيرِ أوتادِ(٤)
مقيمةٌ لم تَقمْ إلّا على سَفَرٍ ... ما يَنْقضى بين تأْويبٍ وإسآدِ(٥)
تمشى الهُوَيْنَى كما مرَّالنَّسيمُ ضُحًى ... فى هودَجٍ من شُعاعِ النُّور وقّادِ
يحجبُ البعدُ سِماها فإن قرُبَتْ ... صَدَّتْ دلالاً فزادتْ غُلَّة الصادِى

---

(١) القلائد : جمع القلادة ، طوق من حجر ثمين يوضع فى العنق . الزمرد : حجر كريم .

(٢) الزهرة : اسم لنجمة ، ويدعوها العامة نجمة الصباح ، عبدها الأوائل وقدموا لها القرابين. راجع وصفها نثراً فى المختارات .

(٣) الحادى : المنشد وراء إبله . عدوة : منعطف .

(٤) اللوى : منعطف الرمل . أطنابها : ما تشد إليه الخيام .

(٥) تأويب : رجوع . إسآد : سير الليل كله بلا تعريس أى إقامة فى الليل .

يسارقُ الطرفُ عَينَ الشمس منظرَهَا ... فالشَّمسُ من دونِها حَلَّت بمرْصادِ

حتى إذا هَجعتْ فى ليلِها ظَفِرتْ ... منها العيونُ بلمحِ المِيسَمِ البادى[1]

فنبئينا رَعاكِ اللهُ جارَتَنـــا ... بل أنتِ سَوْغٌ لنا من عهدِ ميلادِ[2]

قد انقطعنا فما إنْ بيننَا صِلَةٌ ... ولا سبيلٌ لملاّحٍ ولا حادِ[3]

ولم يكن بيننا سَدٌّ وقد ضربَتْ ... أيدى الفضا دونَ لُقيَانا بأَسْدادِ

ما إنْ ينالُكُمُ للبرقِ منطلقٌ ... ولا يقرّبُ منكم سيرُ مِنطـادِ[4]

وإنمـــا رُسْلُنا الأنوارُ حاكيةً ... نارَالصَّليبِ تبدّتْ فوقَ أنجادِ[5]

تُهدى لنا عنكُمُ رمزًا تعودُ لكم ... بمثلِه بيْن إصدارٍ وإيرادِ[6]

يا ليتَ شعرىَ هَلْ تدرين موضِعنا ... وهَلْ لديكِ رِجالٌ أهلُ أرصادِ ؟

وَهلْ رأوا رَكْبَنا النورىَّ منطلقاً ... فى ليلِهم بينَ تصويبٍ وإصعادِ

وهَلْ أقاموا لنَا مثلَ الذى رفعتْ ... آباؤُنا لكِ من تكريم عُبَّادِ

فذى هياكِلُكِ الشمّاءُ قَدْ شخصتْ ... هاماتُها فى الذُّرَى أمثالَ أطوادِ[7]

رأوْكِ للحسنِ معبودًا وما وهمُوا ... فالحسنُ معبودُ عشَّاقٍ وزُهَّاد

---

(١) هجعت : نامت .

(٢) السوغ : الذى ولد على إثره ولم يولد بينهما .

(٣) الملاح : البحرى الذى يشتغل فى سفر البحر .

(٤) ما إن ينالكم : إن زائدة ، أى ما ينالكم . المنطاد : مركب الهواء (Ballon) .

(٥) نار الصليب : أى النار التى توقد يوم عيد ارتفاع الصليب وهو ذكرى استرجاعه من بلاد الفرس أيام هرقل ملك بزنطية .

(٦) الإصدار : الرجوع عن الماء . الإيراد : الذهاب إليه .

(٧) هاماتها : جمع هامة ، رأس . الذرى : جمع ذروة : قمة الجبل ، أى رأسه . أطواد : جمع طود ، الجبل .

لعلَّ للأرض هذا الحظَّ عندكُمُ ... وأنَّها لو علمتُمْ دارَ إفسادِ
وعَلَّكِ اليومَ خلوٌ من مفاسِدها ... وإنْ نكنْ قدخلقْناخَلْقَ أندادِ[1]
أنتِ الفتيَّةُ لا تدرين مفسدةً ... أينَ المفاسدُ من أخلاقِ أولادِ؟
ضلَّ الجميعُ وتاهُوا فى غوايتِهمْ ... فما اهتدى حاضِرٌمنهم ولا بادِ[2]
وأصبحَ الزورُ مرفوعَ اللِّواءِ بِهِمْ ... وقائل الحقِّ موصوفاً بإلحادِ
قامَ الخصامُ بِما لا يعلمون له ... كُنْهًا وَلَمْ ترَهُ أبصارُ أشهادِ
شعبٌ تفاقم فى الأجيالِ واضطرمتْ ... بهِ العَداواتُ دهرًا بين أكبادِ

• • •

أما كفاكم بنى الإنسانِ شقوتُكُمْ ... وأنَّكمْ للمنايا جِدُّ رُوّادِ[3]
وما تُعانونَ منْ جُهدِ الحياةِ وقَدْ ... أمستْ كوقرٍ ثقيل بينَ أكتادِ[4]
ومن تقلّب أطوارِ الزَّمانِ بِكُم ... كأنَّما هو حِرباءٌ بِأعواد
ومِنْ مراغمةِ الأقدارِ طاردةً ... لكم كتيَّارِ يمٍّ حولَ طرَّادِ[5]
ومِنْ مُزاولةِ الأرزاق بغيتها ... تزاحمونَ بأقدامٍ وأعضادِ
ومن مكايدةِ الأدواءِ ساطيةً ... ومن نوازل لا تُحصى بتَعْدادِ
فما لكم تسعدونَ الدهرَ بعضكُمُ ... لكيدِ بعضٍ بهِ يا شرَّ إسعادِ!

---

(١) الأنداد : ج ند : المساوى لك بكل شىء .
(٢) الحاضر : ساكن المدينة . البادى : ساكن البادية .
(٣) المنايا : ج منية ، الموت . الرواد : ج رائد ، المسافر ، وتطلق على الذين يزورون الأقطار بقصد الاستكشاف .
(٤) الوقر : الحمل الثقيل الذى ينوء تحته حامله . أكتاد : ج كتد ، ما بين الكاهل إلى الظهر .
(٥) اليم : البحر . الطراد : آلة حربية بحرية تشبه السفينة .

وإنَّما أرضُنا دارُ السَّلامِ لِمَنْ ... يبغى السَّلامَ ودارُ الحربِ للعادى
وكلُّنا فوقَها رهنُ الزَّوالُ فلا ... أضلَّ بعد الكفى من سعى مُزْدادِ

د — فى الغزل

ما مرّ ذكرك

ما من أديب إلا وتأخذه رعدة الحب فتحرك قلبه فيجرى ما ينبض به قلبه على أسلات لسانه شعراً ، وقد حرك شيخنا الحب فقال :

ما مَرَّ ذكرَكَ خاطرًا فى خاطرى ... إلَّا استباحَ الشَّوْقُ هَتْكَ سرائرى[١]
وتصبَّبت وجدًا عليكَ نواظرٌ ... باتتْ بليلٍ من جفائِكَ ساهرِ[٢]
بلَغَ الهوى منِّى فإنْ أحبَبتَ صِلْ ... أوْ لا فدَتكَ حُشاشتى ونواظرى[٣]
قسماً بِحُسنِكَ لَمْ أُصادفْ زاجرًا ... إلَّا وحُسنُكَ كانَ عَنهُ زاجرى[٤]
أوَما كفاكَ مِن الذى لا قَيتُهُ ... وَلَهُ كَسانى الذُّل بينَ معاشرى
وضنًى يكادُ يشِفُّ عن طىِّ الحشا ... حتَّى خشيتُ بهِ افتضاحَ ضمائرى[٥]
أخذت عيونُكَ من فؤادى مَوْثِقاً ... وعلىّ عهدُ هواكَ لستَ بغادِرِ[٦]
كُنْ كيف شئتَ تَجِدْ محبَّكَ مِثلَما ... تهوى على الحاليْنِ غير مغاير
عذَّبتَ قلبى بالصُّدودِ وإن يكنْ ... لكَ فيهِ بعضُ رضًى فدونكَ سائرى[٧]

---

(١) السرائر : ج سريرة ، الضمير أو ما استتر فى الذهن .
(٢) وجداً : شوقاً . الجفاء : البعد .
(٣) الحشاشة : حبة القلب .
(٤) الزاجر : الوازع ، المانع .
(٥) الضنى : السقم .
(٦) الموثق : العهد .
(٧) الصدود : الامتناع والابتعاد .

وأضعتُ عمرى بالدَّلال وحبِّذا إن صحَّ عندك مطمعٌ فى الآخرِ
كَثُرَ التقوُّل بيننا وتحدَّثوا يا هاجرى حاشاك أنَّك هاجرى

هـ — السياسة

تنبهوا واستفيقوا

نظمها سنة ١٨٦٨م وكانت البلاد العربية بأسرها بقبضة العثمانيين يتحكمون بها وقد غشيها فساد إدارى واجتماعى فتمنى الأحرار أن ينفضوا عنهم ذلك النير الثقيل ، ونشرت هذه القصيدة سرًّا ، فكان لها صدى رددته رقعة البلاد العربية مما حمل حكومة الآستانة أن تهتم بها فسعت لمعرفة ناظمها فأخفقت ولم تهتد إليه :

تنبَّهُوا واستفيقوا أيُّها العربُ فقد طَمَى الخطبُ حتى غاصتِ الرُّكَبُ[١]
فيمَ التعلّلُ بالآمالِ تخدعكمْ وأنْتُم بين راحاتِ القنَا سُلُبُ[٢]
الله أكبرُ ما هذا المنامُ فقد شكاكمُ المهدُ واشتاقتكم التُّربُ[٣]
كم تُظْلَمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
ألِفْتُمُ الهُونَ حتى صار عندكُمُ طبعاً وبعضُ طباع المرءِ مُكْتَسَبُ
زفارقتكُمْ لطولِ الذُّلِّ نخوتُكُمْ فليسَ يولِمكُم خَسْفٌ ولا عَطَبُ[٤]
للهِ صبركُمُ لو أنَّ صبرَكُمُ فى ملتقى الخيل حين الخيلُ تضطربُ
كم بين صبرٍ غدا للذلِّ مجتلِباً وبين صبرٍ غدا للعزِّ يَجْتلِبُ

(١) طمى : زاد وارتفع . الخطب : المصيبة .
(٢) القنا : الرماح . سلب : مسلوبون وحقكم مضاع .
(٣) المهد : سرير الطفل . اشتاقتكم التربُ : اشتاقت إليكم المقابر .
(٤) النخوة : الشجاعة . خسف : ظلم .

فشمِّروا وانْهَضُوا للأَمر وابتدروا ... من دهركم فرصةً ضنَّت بها الحقبُ(١)
لا تبتغوا بالمُنَى فوزًا لأَنفسكمْ ... لا يَصْدُقِ الفوزُ ما لم يصدقِ الطلبُ
خلُّوا التعصُّبَ عنكم واستووا عُصباً ... على الوِئامِ لدفع الظلمِ تعتصبُ(٢)
هذا الذى قد رمى بالضَّعْفِ قوّتكُمْ ... وغادَرَ الشَّمْلَ منكم وهو منشعبُ(٣)
وَسَلَّطَ الجورَ فى أقطاركم فغدَت ... وأَرضُها دونَ أقطارِ الملا خِرَبُ
وحَكَّمَ العِلج فيكم مع مهانتهِ ... يقتادكم لهواهُ حيث ينقلبُ(٤)

* * *

باللهِ يا قومنَا هبُّوا لشأْنِكمُ ... فكم تناديكمُ الأَشعارُ والخطبُ
أَلستمُ من سطوا فى الأَرض واقتحموا ... شرقاً وغرباً وعزّوا أينما ذهبوا
ومَنْ أذلّوا الملوك الصِّيدَ فارتعدتْ ... وزلزل الأَرضَ ممّا تحتها الرَّهَبُ(٥)
ومنْ بَنَوا لصروحِ العزِّ أعمدةً ... تهوى الصواعقُ عنها وهى تنقَلبُ(٦)
فمَالكُمْ ويحكمْ أَصبحتُمُ هَمَلاً ... ووجه عزِّكُمُ بالهونِ منقلبُ(٧)
لا دولةٌ لكمُ يشتدُّ أزركمُ ... بها ولا ناصرٌ للخطب يُنْتَدَبُ
وليسَ من حرمةٍ أَو رحمةٍ لكُمُ ... تحنو عليْكُمْ إذا عضَّتكمُ النُّوَبُ

---

(١) ضنت : بخلت . الحقب : جمع الحقبة ، المدة من الزمن ويراد بها السنة تجوزاً .
(٢) عصباً : جماعة . الوئام : الحب .
(٣) منشعب : متفسخ .
(٤) العلج : يراد به الأتراك .
(٥) الرهب : الخوف .
(٦) الصروح : جمع الصرح ، البناء الفخم .
(٧) الهمل من الحيوان ، المهمل .

٢ – إبراهيم اليازجي الناقد

ا – دستور الأدب

سخف وأسف

لم يكن الانتقاد فى عصر المترجم له انتقاداً متزناً يتحرى الحقائق ، بل كان مهاترة وسباباً وقدحاً أو مدحاً وتعظيماً ، وما كان الناقد يغوص على فكر المنقود فيظهره بحسناته أو سيئاته . فجاء الشيخ يشق طريقاً جديداً فى النقد ، يتنكب فيه عن هجر الكلام الداعى إلى التنابذ والتنافر والتقاطع والتدابر وجر المرء إلى هبوط منزلته وإخلاق ديباجة وجهه . قال ينتقد بعض الشعراء والأدباء :

انتهت إلينا نسخة من كرّاسة تحت عنوان[١] ... تشتمل على مجموع القصائد التى نظمت لحضرة الوجيه الأمثل . . . تهنئة له برتبة الوزارة السنيّة جمعها وطبعها حضرة الأديب . . . وقد تصفّحنا بعضها على قدر ما وسعه وقتنا الضيّق وفسح لنا تراكم الأشغال ، فرأينا فيها من غرائب النظم ، ما استوقفنا وايم الله[٢] بين الحيْرة والأسف لما تمثّل لنا من تخلُّف صناعة الأدب فى بلادنا السوريّة مع ما نعلم فيها من زيادة وسائل انتشار العلم وكثرة المدارس والدّارسين ، وتمنّينا أن ألاّ يكون ذلك عن تراجع فى الفطرة ، وانتكاسٍ[٣] فى استعداد السُّلالة الشرقية التى طالما لمعت أشعة ذكائها فى العصورِ الغوابر .

لاجرَم أنّ مثل هذا لممّا تنقبض له صدور الآمال ، ويكفهرّ له[٤] محيّا الاستقبال ، وممّا يسجّل على الشرقّ بتمام الانحطاط والاضمحلال ، لولا أنّنا لم نزل نشاهد من نجابة[٥] مواطنينا الأعزّاء ونوابغ عقولهم ، حيثما انقلبوا وفى أى

---

(١) أغفلنا اسم الكراسة واسم جامعها عمداً .
(٢) ايم الله : اسم وضع للقسم .
(٣) انتكس المريض : إذا عاودته العلة بعد النقه والإبلال ، والمراد هنا ، التقهقر .
(٤) يكفهر : يظلم ، والمراد هنا يعبس .
(٥) نجابة : ذكاء .

مأخذ شرعوا، ما يؤيّدُ أن شعلة ذلك الذكاء لم تبرحْ تتوقّد فى فِطرهم الشفّافة وما استبنّا منه أن ما ظهر لنا من ذلك التخلّف ، لم يكن عن نقصٍ فى الغرائز ولا فتور فى الذّكاء ، وإنّما هو من نقص العلم وسوء التلقين وفَقْد المنبّهين على العثرات والمسدّدين فى طريق العَمل ، ممّا سوّل[1] للقاصر أن يتطاول إلى ما يفوتُ يدَه من الغايات ، وأراه طريقَ الفضل سهلاً ، فوطِئَهُ وهو لا يدرى ما أمامَهُ من المهاوى والعقبات ، فكثر المتطفّلون[2] على موائد العلم ، والمجترئُون على مقامات الشعر والإنشاء ، على حينَ لا وازعَ يَزَعُ[3] ولا هادى يدعو فيتبع .

وما كان أحوج البلاد إلى مسيطرين على أقلام أصحاب الجرائد السياسيّة وصُحف الأخبار ، لأنّه إذا خيف من تلك أن تَضرّبا لمصلحة الوطنيّة من الجهة السياسيّة ، فإنّ هذه ولا جرَمَ تضرُّ بها من الجهة الأدبيّة ، بما تؤدّى إليه من فساد اللغة التى هى أعظمُ أركان الوطنيّة ، وأهم روابط الجامعة الأمّيّة[4] .

ومعلومٌ أنّ الشعر من أعلى طبقات الكلام وأبعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهة المعانى ، وسلامة الذوق والمبالغة فى التنقيح والتهذيب ، فابتذاله على ألسنة غير أهله ، ممّا يزرى به ويُفسِدُ رونقَهُ ويسقط مزيته ، بل ربّما أفضى إلى دفن كثير من جواهره فى صدور أربابه ، لأنّه إذا أصبح متداولاً بين أيدى العامّة وابتذله مَنْ لا يحسنه ، أنِفَ[5] المجيدون له من انتحاله ، وتجافى كبراء أهل القول عن نزول كنفه .

---

(١) سول : زين ، سهل .

(٢) المتطفلون : من تطفل إذا صار طفيلياً نسبة إلى طفيل وهو رجل من العرب كان يأتى الولائم من غير أن يدعى إليها .

(٣) الوازع : الزاجر ، المانع . يزع : يزجر يمنع .

(٤) الأمية : نسبة إلى الأمة .

(٥) أنف : امتنع حمية واستكباراً .

وهذا ولا ريبَ أحدُ أسبابِ عقمِ الشعرِ فى هذى الأيّام وانصرافِ الرّغبة عنه إلى النثر الذى لا يجلّى فى حلبتيه[١] إلاّ كلّ مَن أعطته البلاغة قيادَها[٢] وملّكته الفصاحة عنانها[٣] ولذلك ترى المتعرّضين للشعرِ أكثرَ من المتعرّضين للنثر حتّى فى الأعصرِ الأولى ، وأيّام كانت الفصاحة شائعة بين طبقات المتأدبين على العموم . ولقد مرّ بنا كثير من ركيك الشعرِ وساقط القولِ ، ولا سيما فى هذى السنين المتأخرة ، التى لم يبق فيها من عرف قاعدة من قواعد الصرف ، أو قرأ ديوانًا من دواوين الشعراء إلاّ تصدّى للنظمِ وطيّرَ قصائده فى البلاد .

إلاّ أنّ جُلّ ما كُنّا ننكره على أولئك الشعراء ، خلوُّ كلامهم من مبتكر المعانى وجليل الأغراض ، وبعد ألفاظهم عن مقام الجزالة العربيّة التى هى حِلْيَةُ الشعرِ ورونقُهُ . ولم نكن نتوهّمُ أن نرى من الشعرِ ، ما يبلغ أن ينتظمَ فى سلك اللّغْوِ[٤] ويعَدُّ ضربًا من التخليط والهذيان ، ممّا لم نرَ له مثيلاً إلاّ فى كلام بعضِ الجرائد عندنا ، ممّا سبقت لنا الإشارة إليه فى غير هذا الموضع .

لا جرَمَ أن هذا من فاحش التأخّرِ بل هو نهاية السقوط والانحطاط ؛ ولولا أن تكونَ تلك القصائد مطبوعة متداولة بين أيدى المطالعين ، لما كُنّا نؤثرُ[٥] إلاّ سترَها على أربابها تفاديًا من هذى المعرّة[٦] الشنعاء .

---

(١) الحلبة : الميدان تتسابق فيه الخيول .

(٢) قيادها : من قياد الدابة ، رسنها .

(٣) العنان : سير اللجام للفرس وهى وما قبلها استعارة بجامع المقدرة .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره .

(٥) نؤثر : نفضل .

(٦) المعرة : العار ، العيب .

وأمّا ما هناك من أغلاط اللغة والنحو والوزن والتقفية فأمرٌ يطول الكلامُ عليه ، وليس من قصدنا فى هذا الموضع ، وقد امتدّ بنا نفَس الكلام إلى ما لا يحتملهُ حالُ هذى القصائد، ولا تتّسع صفحات هذى المجلّة (الضياء) للمزيد عليه .

واللهُ يعلم أنْ ليس غرضُنا فيما أوردناه تثبيط [١] أقلام أولئك الأدباء وأمثالهم عن الجرى فى هذا المضمار ، فإنّه ليسرّنا أن نرى فى قومنا ، مَن يهتمّ بالأدب واللغة ويشتغل بالشعر والإنشاء . وهو ولا شك مما تفخر به البلاد ، ويحيا به تمدُّن الأمّة . ولكن لا أقلّ من أن يكون ما يأتون به صحيحَ التّركيب مفهومَ المعنى ، ولا نطالبهم بالفائق ولا الجيّد، وإلاّ فقد كانت الأميّة أجملَ وأسترَ . وإنّما الذى نتوخّاه هنا ، تنبيههم إلى التثبُّت فيما يكتبون ، وألا يعجلوا إلى نشرِ ما يبْدرُ من قرائحهم ، قَبْلَ تَنقيحه وعَرْضِه على مَن يُقيم من أوَده [٢] أو ينبّه إلى ما فيه من خطأٍ أو لحن [٣] وإلاّ فلا أقلّ من أن يُطالعَ الواحدُ منهم صاحبه ، على ما يجود به خاطره، فإنّ للمرء فى شعرِ غيره ، نظرةً غير نظرتِه فى شعرِ نفسه ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فليطوِ ما ينظمُه عن نفسه أيّامًا حتى يتناساه ، ثمّ يعاوده ، فإنّه حينئذٍ يكون نظره فيه كنظر الأجنبىّ ، ويتنبّه فيه لأشياء لم يتنبّه لها حال النظم .

ونمسكُ عنان القلم على هذا القدر ، تفاديًا من الملل . والله المسؤول أن يسدّدنا [٤] جميعًا بهديه ، وهو حسبنا .

---

(١) تثبيط : تعويق .

(٢) الأود : الاعوجاج .

(٣) اللحن : الخطأ فى الإعراب والبناء .

(٤) يسددنا : يرشدنا إلى السداد وهو الصواب والاستقامة .

ب — فى النقد الأدبى

ديوان المتنبى

بعد أن شرح الشيخ ديوان المتنبى نظر فى مجمل شعره، فخرج منه بالبحث الآتى وفيه من أدب النقد ما فيه :

ومن تفقُّد أوائل ديوانه ، رآها كذلك ألوانًا تَبَعًا لمقامات الكلام ومراتب المخاطَبين ، وكلما أمعن فيها وراء ذلك ، وجد هذا التلوُّن فيه أخفى آثاراً وأقلّ عُروضًا[١] ، إلى أن استقلّت طريقه وأقلع عن موقف التقليد. إلاّ أنه لم يزل فى ملَكَته شىء، من ذلك القديم، أشبه بعِداد[٢] السليم[٣] يعاوده حيث يحتفل، ويقصد الإغراب والمبالغة فى الإحسان ، فيأتى كلامُه معقَّداً بادى التكلف . ولهذا ترى شعره فى أبى العشائر ، مثلا ، أسهل أسلوبًا وأظهر أغراضًا[٤] من بعض شعره فى سيف الدولة[٥] ، مع أنه، ولا شك، كان أيام اتصاله بسيف الدولة أغزر مادّةً ، وأقدر على التصرُّف بأزمّة[٦] الكلام . وانظر إلى قصيدته فى أبى العشائر التى أولها : « أتُراها لكثرة العشاق » وقابلها ، مع شعره فى سيف الدولة ، بالقصيدة التى أولها : « رويدك أيها الملك الجليل » مع تدانى[٧] العهد بين القصيدتين، ثم انظر إلى قوله فيه : « أيدرى ما أرابك من يريبُ » وقوله : « القلب أعلم يا عذول ببدائه » وقوله فى رثاء تغلب بن حمدان : « ما سدكت علةٌ بمورودِ » وقابل هذه كلها بقوله : « أنا لائمى إن كنتُ وقت اللوائم »

---

(١) أقل عروضاً : أقل ظهوراً .
(٢) العداد : اهتياج وجع اللديغ بعد سنة .
(٣) السليم : اللديغ . ويقال للملدوغ تيمناً بشفائه .
(٤) أظهر أغراضاً : أوضح قصداً .
(٥) سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وممدوح المتنبى .
(٦) أزمة : ج زمام وهو رسن الدابة واستعير للقبض على مفردات اللغة وكلمها .
(٧) تدانى : قرب .

هى قبل شعرهِ فى أبى العشائر . وإن شئت فتجاوزها إلى ما قبل ذلك وقابلها بقولهِ : « لقد حازنى وجدٌ بمن حازهُ بُعدُ » وأختها وقولهِ : « أطاعن خيلا من فوارسها الدهرُ » وقولهِ : « قد علَّم البين منَّا البين أجفانا » إلى ما فى طبقة هذه القصائد مما نظمهُ قبل ذلك بزمنٍ طويل ، فإنك . ولا جرمَ . ترى هذه أفصح نظمًا وأحسن ديباجةً وأبدى أغراضًا على دقةٍ فى المعانى وابتكارٍ قد لا تجدهما فى تلك . وذلك أنهُ . عند اتصالهِ بسيف الدولة . وقف منهُ بابٍ حافلٍ بالشعراء والعلماء ، على ما هو مشهورٌ من حال سيف الدولة ورغبتهِ فى الأدب ، حتى يقال إنهُ اجتمع ببابهِ منهم ما لم يجتمع بباب أحدٍ من الملوك بعد الخلفاء . وكان سيف الدولة نفسهُ من الشعراء المجيدين ، وكان يتصدى[1] للاقتراح على المتنبى والنقد عليهِ أحيانًا بما ذكرنا بعضًا منه فى هذا الشرح . وكذلك كان أكثر بنى حمدان ؛ وقد ذكر منهم الثعالبىّ عدّةً وافرة أورد لهم شعراً فائقًا ، وفى جملتهم أبو فراس ، وهو فى بعض شعرهِ أشعر من المتنبى . وكان المتنبى يتحاماهُ ويتحرَّز من نقدهِ . وقد نقلنا فى الشرح عند رواية قصيدتهِ التى أولها « واحرَّ قلباه » ما كان من مناقشة أبى فراسٍ لهُ ، ولذلك لم يكن للمتنبى بدّ من حشد القريحة فى مدائح سيف الدولة ، والإكثار من التحرّى والتنطُّس[2] فى ألفاظه ومعانيهِ ، والإمعان فى الاحتفال إلى ما وراء طبعهِ ، حتى تنقلب قريحتهُ صنعةً وبادرتهُ تكلفًا . ثم إذا انتقلت إلى شعرهِ فى كافور ، وجدتهُ قد عاد إلى السهولة والرشاقة ، فأشبه شعرهُ فى أبى العشائر ومن قبلهُ . وشعرهُ فى ابن العميد متأخرٌ عن شعرهِ فى كافور ، لكنه أشبه بشعره فى سيف الدولة ، لأن ابن العميد كان من مشاهير علماء الأدب وأمراء النقد ، ولهُ على

---

(١) يتصدى : يتعرض .

(٢) التنطس : التأنق فى الكلام .

المتنبي مآخذ ذكرنا ما تيسّر منها فى محلّه . أما شعره فى عضد الدولة فأنزل رتبة من ذلك كله ؛ لأنه كان يرسل الكلام فيه من فضل القريحة ، لقلّة المزاحمين والنقاد ، فلم يكن يتوخّى الاحتفال ولا الاختراع إلاّ ما ساقته القريحة عفواً . ولكنه لما نظم فيه أرجوزته التى أولها « ما أجدر الأيام والليالى » عاد إلى دأبه[1] الأول من الإغراب[2] والتكلف ، لأنه كان فى أراجيزه يقصد محاكاة البدويات[3] ؛ ولذلك ترى كل ما له من هذا النوع معقّداً جافى اللفظ والتركيب ، لا يشبه سائر شعره ، ولا عليه شىء من طلاوته وانسجامه .

على أنى لا أقول إن كل ما استعجم من شعر المتنبي وخفى سرّه يكون سببه ما ذُكر ، بل إذا تصفحت شعر كل شاعر لم تستغن فى بعضه عن قدح زنا الرويّة وإعمال النظر فى استبانة المقصود منه لاستعارة غامضة فى البيت ، أو كناية بعيدة ، أو إيجاز لا يصرّح معه بتمام القالب اللفظىّ ، أو إشارة إلى المراد من طرَفٍ خفىّ . على أن أغراض الشعر فى الغالب تكون أخفى من أغراض النثر ، وأبعد تناولاً . لانتزاع الكثير منها من الصّوَر الخاليّة[4] والتماثيل الوهمية ، ولكثرة ما يعرض فيه من المجاز . على تفاوت[5] مسافته من الحقيقة ، فضلاً عما للشعر من المقامات الحَرِجة التى تضطرّ الشاعر تارةً إلى إحالة الكلام عن وجهه ، لنزوله به على حكم الوزن والقافية .

---

(١) الدأب : العادة والشأن .

(٢) الإغراب : الإتيان بالغريب من ضروب الكلام ، أى عويصه .

(٣) البدويات : أى الأراجيز البدوية .

(٤) الخالية : نسبة إلى الخال ، وهو المخيلة المصورة للفكر .

(٥) تفاوت : تباعد .

ومعلومٌ ما كان للمتنبي من سَعَة التصرف فى المعانى ، والاقتدار على الإبداع [١] والتبسط فى جميع أساليب الشعر وفنونه ، والإحاطة بأغراض الحديث وشجونه [٢] بحيث أنه قلما وقعت واقعةٌ ، إلا ذكرتَ للمتنبي بيتًا تتمثل به فيها ، حتى كأنَّهُ كان ينطق بألسنة الحدثان ، ويتكلم بخاطر كل إنسان ، ويخطب فى كل شان فلم يكن من العجيب ، مع كثرة معانيه وازدحامها فى خاطره ، ومع تبحُّره فى اللغة وطول باعه فى أساليب المجاز ، أن يقع فى بعض كلامه إبهامٌ لا يظهر معهُ المقصود ، إلا أنهُ ربما أغرب فى ذلك بأن يُوغِل فى طرق المجاز ، حتى يفوتَ السامعَ غرضهُ ، أو يتَّفق لهُ المعنى الكبير يحاول إدماجه فى اللفظ اليسير ، فيبالغ فى الإيجاز ويضيّق اللفظ على المعنى ، حتى لا يبقى للنظر إليه مجاز ولا للفكر فيه مجال . فإذا انتهى الشارح إلى مثل ذلك ، لم يتأتَّ لهُ فهم المعنى وتمثيله ، إلا بالتأويل والتبديل والزيادة على لفظ البيت . وربما اضطُرَّ إلى الزيادة على المعنى أيضًا بما يتمم صورتهُ ويسدُّ خَصَاصه [٣] وناهيك ما هناك من سعة وجوه الاحتمال ، وضيق مسافة الإشكال ، مما تحار عندهُ بصائر النُّقَّاد ، ولا يُقطَع فى جنبه مراد . ولعلّ هذا هو المقصود فى قول من ينسُب خفاء معانيه [٤] إلى الدقّة والابتكار [٥] . لكنك إذا تحققت ، وجدت ذلك كلهُ غير خارج عما سبق الكلام عليه من الإبهام فى صُوَر التعبير ، ووقوع اللفظ من دون مرمى [٦] المعنى .

---

(١) الإبداع : الإيجاد .
(٢) شجون الحديث : أغراضه المتنوعة .
(٣) الخصاص : الخلل .
(٤) أى معانيه البعيدة غور الفهم .
(٥) الابتكار : الإتيان بالشىء الجديد .
(٦) مرمى المعنى : المقصد الذى يرمى إليه المعنى .

وتبين للشيخ غموض فى شعر المتنبى عند ما انتدب نفسه لإتمام الشرح الذى كان قد بدأه أبوه الشيخ ناصيف فأعمل الفكر فى الكشف عن هذا الغموض فوفق إلى غرضه غاية التوفيق ، كما يتضح لنا ذلك من قوله :

وإنما الغرض من هذا الفصل الكلام على شعره من حيث هو كلامٌ تراد منهُ المطابقة بين المسموع والمفهوم ، فأذكر ما لهُ من إجادةٍ أو تقصير فى استخدام الألفاظ ، من حيث هى قوالب للمعانى ، مع بيان الحدّ الذى جرى إليه فى ذلك ، ومنزلة شعره من هذا الوجه مما يرجع فى الأكثر إلى أدب الكاتب وصناعة اللغوىّ ، ويكون مرمىّ لنظر علماء المعانى وأصحاب الترسُّل فى صياغة اللفظ وتقديره على المعنى . وهذا مما ألمَّ[1] به بعض المتكلمين على ديوانه ، إلا أنهم ، على الغالب ، يشيرون إليه من جانب البحث ، ولم أجد من تفرَّغ لإشباع الكلام فيه ، مع أنهُ لم يشرح هذا الديوان شارحٌ إلاَّ خبط فى دياجير[2] لفظه وهام فى تيه تعبيره ، فأخذ بين تقديرٍ وتأويل وتخريجٍ وتعليل ، مما يقضى بالعناء الثقيل ، إلى أن يفرغ منهُ وفى نفسه منه أشياء . والعجب أن كثيراً من خاصة الناس ، فضلاً عن عامّتهم ، ممن يذهبون إلى تفضيل المتنبى على سائر الشعراء ، يرون أنهُ إنما نال هذه المنزلة وانفرد بالمزية على غيره ، لخفاء معانيه وبعد مأتاها . وكثرة ما يحتَمِل كلامه من وجوه التفسير وضروب التأويل ، وأنهُ بهذا فضَل الشعراء وأشير إليه من بينهم بالتبريز[3] والسبق ؛ حتى إن الواحدى ، رحمهُ الله ، مع وفرة فضله وطول باعه فى صناعة الأدب وسعة علمه بمذاهب الشعر ، يقول فى خطبة شرحه فى الكلام على المتنبى ما نصهُ : « على أنهُ كان صاحب معانٍ مخترعةٍ بديعة ، ولطائف أبكارٍ منها لم يُسبَق

(١) ألم بالشىء : فهمه وعرفه .

(٢) الدياجير : ج ديجور ، ظلمة ، والمراد غريب اللفظ وعويصه .

(٣) التبريز : التفوق .

إليها ، أنيقة ، ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة والعلماء ، حتى الفحول منهم والنجباء[١] : كالقاضى أبى الحسن الجرجانى ، وأبى الفتح عثمان بن جنى ، وأبى العلاء المعرى ، وأبى على بن فوزجة البرقوجردى ، رحمهم الله تعالى ، وهؤلاء كانوا من فحول العلماء ، وتكلموا فى معانى شعره ، مما اخترعه وانفرد بالإعراب فيه ، وأبدعه ، وأصابوا فى كثير من ذلك ، وخفى عليهم بعضه فلم يبن لهم غرضه المقصود ، لبعد مرماه وامتداد مداه » . . . إلى آخر ماذكره فى هذا المعنى وأشبع القول فيه . وما أرى هذا الكلام منه إلا صدى للمشهور وحكاية للمتداول ، وإنما سبق السماع فيه الاختبار . وغلب التقليد على صادق الاعتبار . وإلا فليس ماذكره من دقة معانيه واختراعها هو العلة فى خفاء تلك المعانى ، بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو أبين من لفظه ، وبعبارة أخرى : متى صورته باللفظ الذى حقه أن يصور به ، ذهب خفاؤه مهما كان دقيقا ، وأشرب الفهم على غير كلفة ولا عناء . والمعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية[٢] ، أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة نظر وجهد ذهن فى تفهمها وإنما هى معان طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز . والاختراع ، من حيث هو ، لا يقتضى الخفاء ، وإلا لخفى أكثر شعر المتقدمين ممن سبقوا إلى ابتكار المعانى ، مع أنك لا تكاد ترى فى كلامهم ما غاص فى الإبهام ، وحسرت[٣] من دونه الأفهام . إلى الحد الذى تراه فى بعض شعر المتنبى ، بل متى كان الكلام مفرغا فى قوالب من الوضع لا يخرج عنها ، جاريا على سنة[٤]

---

(١) النجباء جمع : النجيب ، الذكى .
(٢) الأسرار الصوفية : التى تؤول على غير ظاهر لفظها .
(٣) حسرت : تعبت .
(٤) السنة : الطريقة .

من التعبير لا يتعدّاها ؛ وكانت تلك القوالب وهذه السنّة معروفةً عند السامع ، فقلما يتخلف المعنى عن اللفظ إلا بمقدار ما تحيط به الرويّة ، ويتناوله الذهن. ولكن ما ذُكر للمتنبي ، من خفاء المعانى وغموضها ، واردٌ على الغالب من قبيل الإبهام فى اللفظ ، والتعمية[1] فى صوَر التراكيب وإلباس المعنى غير ثوبه الذى تظهر به تقاطيعه ، وإنزاله فى غير منزله الذى يُقرع عليه بابه ، وهى طريقة له اختطّها لنفسه وأكثر من التعمل[2] لها والنزوع[3] إليها . وإذا اعتبرت جملة شعره وجدت ذلك لا يختصّ منه بمواضع الدقة والاختراع ، بل كثيراً ما ترى الأمر ، بعد التحقيق ، ناطقاً بالخلاف واقعاً على العكس ؛ فإنك إذا تفقدت أبياته من هذا الضرب ، وعانيت استخراج ما فيها ، إلى أن يستقيم لك وجهٌ من الأوجه التى يحتملها ، لا تكاد ترى وراء ذلك كبير أمرٍ ، بل قلّ أن ترى له بيتاً قد خفى سرّه وبعُدَ مغزاه إلاّ وهو على الأكثر من ساقط شعره ومُبتذَل معانيه ، وكأنه يحاول أن يخرجه إلى الإغراب[4] ، وشتان بين الإغراب اللفظى والإغراب المعنوىّ. وربما كان المعنى ، من مثل ذلك ، مسبوقاً فيحاول أن يبعد به عن أصله ويغيّر ديباجته بغير لونها فيفسد عليه وكثيراً ما يقع له ذلك من استعمال اللفظ فى غير موضع استعماله. أو حذف شىء فى غير مواطن الحذف ، أو تشويش التركيب بالتقديم والتأخير فيما حقّه العكس ، أو زيادة حشوٍ[5] يفرّق بين أجزاء المعنى . ولذلك فإنك ترى أكثر هذه النظائر فى شعره قد ظهر عليها أثر الصنعة ، وتجاذبها التكلّف والتعقّد ، حتى تخرج عن سَنَن الفصاحة وطريق البداهة إلى ما يُدخلها فى الركاكة ، ويميل بها إلى

---

(١) التعمية : عدم الوضوح .
(٢) التعمل : التصنع .
(٣) النزوع : الميل .
(٤) الإغراب : الغموض .
(٥) الحشو : الكلام الذى لا معنى له فى الجملة .

اللغو والخطأ . وهذه الوجوه وأشباهها هي مورد أكثر ما يُرى في شعره من تلوّن[1] الاحتمالات ، واختلاف مذاهب التأويل. وأنا أورد لك ههنا بعضًا من الأمثلة على ذلك ليُعْتبر بها غيرها مما يُرَى في سائر الديوان ، ثم أورد بعضًا مما جرى به على الضدّ من ذلك ليتبين موقع كلّ من الطرفين بصاحبه ، كما قال : وبضدّها تتبين الأشياء . فمن تلك الأمثلة قولهُ :

فتى ألف جزءٍ رأيهُ في زمانهِ أقلُّ جُزَيءٍ بعضهُ الرأيُ أجمعُ

وقد ركب في هذا البيت ، من التقديم والتأخير والحذف والإبهام ، ما لا يباح مثله في أساليب الكلام ، حتى إنك إذا حلّلت تركيبهُ النحويّ ، وجدتهُ باقيًا على غموضه ، ولا يظهر لك الغرض منهُ إلا بعد إطالة النظر وإعنات الرويّة . وصورتهُ بعد الحلّ : هو فتًى رأيهُ في زمانه ألف جزءٍ ، أقل جزءٍ منها ، بعضهُ الرأي أجمع . فتأمّلْهُ . وإنما ورد عليهِ ذلك من قِبَل ما فيهِ من تداخل المعنى ، وطول سلسلة الأجزاء بسرد أربعة ابتداءات فيه قد أخذ بعضها برقاب بعض ، وصارت كالشيء الواحد ، وهذا مما لم ينبّه عليه علماء المعاني . وحينئذٍ فلا بدّ للشارح ، مع تأويل ما فيه من المجاز والكشف عن المبهم[2] ، من تفصيل المعنى وتقطيع أجزائه ، بأن يقال: هو فتًى ، لو اعتُبِر رأيه في أحوال زمانه ألف جزءٍ ، لكان أقل جزء من هذه الأجزاء ، يعادل جزءٌ منه كل ما عند الناس من الرأي وحاصل ما فيه : أن الممدوح أعلم الناس بأحوال الدهر . وأين هذا المعنى من هذه الألفاظ وما ركبه فيها من المعاظلة والتكلف والتعسف[3] وكدّ ذهن

---

(١) تلون الاحتمالات : تنوع الأغراض والمقاصد .

(٢) المبهم : الغامض .

(٣) التعسف في الكلام : أخذه على غير هداية .

السامع بتتبع قواعد النحو والمجاز ، والارتباك فى حساب طويل لا طائل تحته ، حتى يستخرج منه هذا المعنى المبتذل[١] .

٣ – إبراهيم اليازجى العالم

ا – فى الفلك

القمر

أولع الشيخ بعلم الفلك فدرسه دراسة صحيحة وجرت له مراسلات مع فلاماريون العالم الفلكى الفرنسى وهذا نموذج مما كتبه :

لا جَرَمَ أن أول ما يَبدَهُ[٢] الناظرَ من مرأى القمر ، وهو فى أوان البدر ، وما حواليه ، أنه يراه على خلقة وجه الإنسان ، فيه العينان ، والحاجبان ، والأنف ، والفم ، وذلك بما يتخلل سطحَه من المَحْو ، أى السواد المنتشر على وجهه ، بحيث يتبادر منه إلى الخيال هذه الهيئة الغريبة فهو فى ذلك على حدّ ما يُتخيَّل أحيانًا فى قِطَع الغيم المتراكة[٣] ، من هيئات الأناسِي[٤] والدّوابّ وغيرها ، بما يعرِض لها من اختلاف الأشكال وما يتخللها من الظّلال فى جنب ما يقع عليها من ضوء الشمس . وهذا المنظر ، فى القمر ، يستمرّ من لَدُن طلوعه من المشرق حتى يبلغ الزوال ؛ فإذا مال بعد ذلك وانقلب إلى جهة المغرب ، تبدّل منظره ، واستحال إلى صورة رجلٍ قائمٍ على ساقيه ، وقد مدّ ذراعيه إلى الأمام ، كأنه يدافع بهما . إلا أن كل ذلك إنما يكون فى نظر العين المجرّدة ؛

---

(١) المبتذل : المنحط عن رتبة الفصاحة .

(٢) يبده : يفاجئ .

(٣) المتراكة : المتكدس بعضها فوق بعض .

(٤) الأناسى : الناس .

فإذا نظر إليه، ولو بمنظار ضعيف ، انتسخ ذلك بجملته . ولم يبقَ له أثر .

ثم إن هذا المحو[١] ، كما كان سبب تضليل للأمم الأولى ومن بقى على شاكلتها ليومنا هذا من العامّة ، فقد كان محلّ حَيْرة للعلماء وأهل البحث منهم . وقد اختلفوا فى أمره اختلافًا بعيداً ، وافترقوا فى ماهيّته[٢] على مذاهب نورد بعضها تفكهةً للقرّاء . فمنهم من ذهب إلى أن ذلك ناشئٌ عن شكل القمر وخلقته ، إذ هو مخلوقٌ على هيئة وجه الإنسان ، على نحو ما تقوله العامّة ؛ فهو ، عند هؤلاء القائلين ، تمثالُ رأس ضخم بمنزلة رأس أبى الهول مثلاً وزعم آخرون أنه شَبَحُ ما ينطبع فيه من السُّفليّات من الجبال والبحار ، يعنون ما فى الأرض من ذلك ، وهذا مبنىّ على أن القمر جِرمٌ صقيل كالمرآة ، بدليل عكسه لضوء الشمس . وقال غيرهم : إنه السواد الكائن فى الوجه الآخر منه ، أى النصف المظلم الذى لا يقع عليه ضوء الشمس ، وهو قول من يزعُم أن الكواكب أجسامٌ شفّافة . وهناك مذاهب أخرى ، لا تقِلّ غرابةً عن هذه ، كانوا يقولون فيها بالحَدْس[٣] ، ويبنونها على قواعد فلسفة ذلك العصر ، مما لا محلّ للإفاضة فيه فى هذا الموضع . والصحيح ، وهو الذى يُشاهَد بالآلات المعظّمة ، أن بعضه لون الظلّ الذى تلقيه جباله على وهاده وبسائطه ، وأكثر ما يكون ذلك وهو فى أحد التربيعين وما إليهما ، لوقوع شعاع الشمس عليه حينئذ منحرفًا ؛ والبعض الآخر لون صحاريه ، وما يتخلّل جبالَه من الأتربة والرمال وبقايا الخَلْق الدائر[٤] . وأما فى أوان البدر الذى يكون فيه صَفْحه[٥] المواجه لنا

---

(١) المحو : غياب قسم من القمر .

(٢) ماهيته : أصله ونوعه .

(٣) الحدس : التخمين والظن .

(٤) الدائر : البالى .

(٥) صفحه : جانبه ووجهه الظاهر .

مقابلاً للشمس ، وحين يكون ظلّ جباله محجوباً عنّا بقمم تلك الجبال أنفسها ، فلا كلام فى أنه لون تلك الأتربة .

أما شكل القمر ، فالظاهر لنا أنه كُرَوى(١) على الجملة ، إلاّ أن الذى يستقبلنا منه ، إنما هو أحد صَفْحتَيه دون الآخر ، إذ هو يوجّه إلى الأرض جهةً واحدةً أبداً ، كما يظهر ذلك بمراقبة محْوِه ، وتتبُّعه من أول الشهر إلى آخره . وأما الجهة الأخرى فلا يكاد يُرى منها إلاّ الشىء النزر من أطرافها لأسباب ليس هذا موضع بيانها ، ولذلك لا يُعلم شكله من تلك الناحية ، وبالتالى لا يُعلم قُطْره(٢) المسامت(٣) لخط النظر . قالوا : وعلّة ذلك قوّة جذب الأرض له وممانعتها إياه من الدوران على نفسه إلا فى القدر الذى يدور به أحد وجهيه حول الأرض ، فتكون له حول نفسه دورةٌ إضافية يُتمُّها مرةً فى الشهر عند تمام دورته حول الأرض . على أنه قد رئى أحد أقمار المُشترى ، وهو أقربها منه ، مستطيلاً من القُطر القائم على السيّار ، فهو أشبه بهيئة البيضة ، وهو أيضًا لا يوجّه إلى السيّار إلّا وجهًا واحداً . فغير بعيد أن يكون قمرنا كذلك ، ويكون ما ذكر هو العلّة فى وحدة اتجاهه إلى الأرض .

ولما كان القمر يدور حول الأرض ، ويدور معها حول الشمس ، لزم بالضرورة أن يكون القمر تارة بيننا وبين الشمس ، وهو أوان المحاق ، فلا تتأتّى لنا فيه رؤيته ، إذ يكون الوجه المستنير منه إلى الشمس ، والوجه المظلم إلى الأرض . وتكون الأرض تارة بينه وبين الشمس ، وهو أوان البدر ، وحينئذ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه فى استقبال الشمس . وتارةً تكون الأرض والقمر متحاذيين على بعد واحد من الشمس ، وهو أوان التربيع ، فنرى نصف السطح

(١) كروى : بشكل دائرة .
(٢) القطر : الخط المستقيم الذى يقسم الدائرة ومحيطها .
(٣) المسامت : المساوى باتجاه .

الموجّه منه إلينا لوقوع النصف الآخر فى جهة الفضاء . وكما أننا نرى القمر متشكلاً بهذه الأشكال ، فلو وقف ناظر على سطح القمر المواجه لنا ، رأى الأرض كذلك ، أى يراها بدراً عند ما يكون القمر فى المحاق ، ويراها فى المحاق عند ما يكون هو بدراً ، وأما فى التربيع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاه ، فيعودا إلى الاختلاف شيئًا فشيئًا ، إلى أن يصير أحدهما بدراً والآخر فى المحاق .

الزُّهَرَة

لا جَرَم أنه إذا كان ، بعد الشمس والقمر ، نجمٌ حَرِىَّ بالعبادة ، فأحرَى النجوم بذلك الزُّهَرة[1] ، لما أنها أعظم الكواكب نوراً ، وأصفاهن شُعاعًا ، لا يدانيها فى ذلك إلاَّ المشترى والشِّعْرى اليمانية ؛ بَيْدَ أنهما إذا قوبلا بها عن كَثَب ، كسفت بهاءهما بتألُّق شعاعها ، ولا سيما عند مُعظَم نورها ، فإنها تظهر حينئذٍ والشمس فى كَبِد السماء . وقد عبدها جميع أمم الأرض قديمًا . حتى لا تكاد تبحث فى تاريخ أمةٍ إلا تجد لتلك العبادة آثاراً فى مسطوراتها ومخلَّفاتها من هياكل وتماثيل وغيرها . وممن عبدها العرب ، وكان لها معبدٌ بصنعاء[2] اليمن ، وهو قصر غُمدان المشهور ، بناهُ على اسمها الضحَّاك ولبث بيت عبادةٍ لها حتى هدمه عثمان بن عفّان .

والزُّهَرة ، ولا شك ، أول كوكبٍ عُرف من السيّارة لسرعة حركتها فى فلكها ، بحيث إنها لا تثبت مدة أسبوعين فى موضع واحد من السماء . وهى تكون تارةً نجم مساء ، وتارةً نجم صباح ، تبعًا لموضعها من الشمس ، لأنها إذا

---

(١) الزهرة : اسم لنجمة يعرفها العامة باسم نجمة الصباح وقد عبدها الأقدمون وقدموا لها القرابين وأقاموا لها الهياكل ولا سيما فى لبنان .

(٢) صنعاء : عاصمة اليمن .

كانت إلى شرقيّ الشمس ، ظهرت بعد مغيبها فى الأفق الغربى ، فكانت نجم مساء . وهى تظهر أولاً لمحةً ، ثم ترتفع يوماً بعد يوم حتى يبلغ معظم ارتفاعها ٤٨ درجة ، وحينئذٍ تلبث فوق الأفق ما يزيد على أربع ساعات ، وبعد ذلك تعود فتتنزل كما ارتفعت حتى تمر من أمام الشمس ، فتبرز من غربيّها ، وتظهر قَبْلها فى الأفق الشرقىّ ، فتكون نجم صباح . وتستمرّ فى الشرق كذلك ، ثم تعود فتبرز[1] من وراء الشمس فى الأفق الغربىّ ، وهلمّ جرّاً .

وكانت الزهرة قديماً ، كبقية أخواتها من السيّارة ، تُعتبر مضيئة بذاتها ، لأنهم لم يروا تغيّراً فى منظرها ، فكانت عندهم فى حدّ سائر النجوم الثوابت . وأول من خالفهم فى ذلك كوبِرْنيكس الفلكى المشهور من رجال القرن السادس عشر ، فإنه لما بدّل هيئة النظام البطليموسى[2] ، جزم بأن السيارات ينبغى أن تكون كُرَاتٍ مظلمة كالأرض ، وأن ما ترسله إلينا من النور ، إنما هو منعكسٌ عن أشعّة الشمس . فاعتُرض عليه بأنه لو كان الأمر كذلك ، للزم أن يظهر كلّ من الزهرة وعطارد بأوجهٍ مختلفة كأوجه القمر ، ولما لم يسعه البرهان على ذلك من الطريق الحسّى ، بقى قوله مهملاً ، حتى حققه غاليلاى فى القرن التالى بعد اختراعه لِلْمِرْقَب[3] سنة ١٦١٠ م ، فإنه أول ما وجهه إلى الزهرة ، فظهرت لهُ فيها كلّ رُؤى القمر من الهلال إلى البدر .

أمّا بُعد الزهرة من الشمس ، فهو ٧٢٣ من بُعد الأرض ، وفلكها قريبٌ من الاستدارة التامة ، لأن إهليلَجيّته[4] لا تزيد على ٠٠٦٨, . ، وهى تتم دورتها

---

(١) تبرز : تظهر .

(٢) البطليموسى : نسبة إلى بطليموس الفلكى اليونانى صاحب كتاب المجسطى عاش قبل الميلاد.

(٣) المرقب : النظارة التى تراقب بها الأجرام السماوية .

(٤) الأهليلجية : أى الاستدارة مع شىء من الطول .

حول الشمس فى ٢٢٤ يومًا ، أو سبعة أشهر ونصف ، تقطع فى اليوم منها نحو ١٨٥٠٠٠٠٠ ميل أو ٢١ ميلاً فى الثانية ، فهى أسرع من الأرض قليلاً . إلا أنه لمَّا كانت الأرض مُشايعةً للزهرة فى مسيرها إذ كلتاهما تتّجهان من الغرب إلى الشرق ، لزم ألا نراها أتمّت دورتها إلاّ بعد ٥٨٤ يومًا أو تسعة عشر شهراً ونصف ، وهى مجموع سنتى الأرض والزهرة معًا ؛ غير أنها تخفى نحو خمسة أشهر من هذه المدة تكون فيها محتجبة بأشعة الشمس ، لأنها تقترن بها فى كل دورةٍ مرّتين ، تخفى فى كلٍّ منهما نحو سبعين يومًا ، نصفها قبل الاقتران ، والنصف الآخر بعده ، وتظهر لنا سبعة أشهر نجم مساء ، وسبعة أشهر نجم صباح .

وأمَّا بُعدها عن الأرض فيختلف كثيراً ، فإنها فى الاقتران الأدنى تبعد نحو ٢٥٠٠٠٠٠٠ ميل ، وفى الأعلى تبعد نحو ١٦٠٠٠٠٠٠٠ ميل ، وذلك أنها فى الوضع الأول تكون بين الأرض والشمس ، فلا يكون ، بين الأرض وبينها إلاّ عرض المنطقة الفاصلة بين الفلكين ؛ وفى الثانى تكون وراء الشمس ، فيكون بيننا وبينها مسافة قُطر فلكها مع عرض المنطقة المذكورة . ويختلف قطرها المَرْئىُّ بحسب ذلك ، فيكون بين ٦٥" و ١٠" ، إلا أنها فى الحال الأولى تكون فى المحاق ، أى يكون الموجّه إلينا منها نصفها المظلم ، فلا نراها ؛ وفى الحال الثانية تكون بدراً ، إلا أن قطرها الظاهر حينئذٍ ، لو أمكن أن نراها ، يكون أقلّ من سدس ما يكون عليه وهى فى حال المحاق . ولذلك فإن معظم نورها لا يكون فى شىء مما جاور هاتين الحالتين ، ولكن أنور ما تكون عليه إذا بلغ تباينها ، أى بُعدها عن الشمس شرقًا أو غربًا ، ٥ , ٣٩° وذلك قبل الاقتران الأدنى ، أو بعده بمدة ٦٩ يومًا ، وحينئذٍ يكون المنوَّر منها ربع

قرصها ، فتكون كأنها هلال أربع . ومتى كانت كذلك فقد تُرى فى إبّان[١] النهار ، كما سبقت الإشارة إليه ، إلا أن ذلك يختلف فيها بين سنة وسنة ، تبعًا لميل فلكها ؛ وهى تعود فى كل ثمانى سنين إلى الاقتران بالشمس فى الموضع نفسه من السماء ، لأنها حينئذ تكون قد أتمت خمس دورات من دوراتها المرئيّة ، فتعود رؤيتها من الأرض إلى مثل ما كانت عليه فى الموعد السابق .

وأمّا دوران الزهرة على نفسها ، فما اشتغل العلماء وأهل الرصد فى تحقيقه زمنًا مديداً ، واستخدموا لذلك أعظم المراقب[٢] ، فلم يحصلوا من معرفته على يقين . وذلك أن ظاهر هذا السيّار شديد البياض واللمعان ، لا يكاد يبدو عليه ظلّ ، ولا تظهر فيه سِمَةٌ واضحة الحدود ، بخلاف غيره من الأجرام[٣] المتحركة حولنا ؛ فإنّ كلّ واحدٍ منها يَرى على سطحه شيءٌ من السواد كالمحو الذى نراه على وجه القمر ، فإذا تحرّك الجرم على محوره ، انتقل ذلك السواد من موضعه حتى يخفى وراء الجرم ، ثم يعود من الناحية الأخرى حتى يرجع إلى حيث كان ، فيكون قد تمّ هناك دورة كاملة ، وبمثل هذا عيّنوا الدورة اليومية فى السيّارة[٤] ، وعرفوا مَيْل محاورها على سطوح أفلاكها ، ومنه عُلم أن القمر لا يدور على نفسه دورةً مستقلّة . وقد عُنِى الراصدون بذلك فى الزهرة منذ اختُرعت الآلات المقرّبة ؛ وممن عانى ذلك الفلكىُّ كاسينى ، فإنه بعد جهد المراقبة ، ظهر لهُ شيءٌ من المحو على سطحها ، فبقى يراقبه على أيامٍ متعدّدة ، فوجده كلّ يوم يظهر فى مثل الساعة من الأمس فى مكانه الأول على فَرَق

---

(١) إبان النهار : أول النهار .

(٢) المراقب جمع المرقب : المنظار الذى ترقب به النجوم « تلسكوب » .

(٣) الأجرام جمع جرم : الكوكب والنجم .

(٤) السيارة : النجم المتحرك الذى يدور حول الشمس .

زهيد تَمثَّل له ، فحكم بأنها تدور على نفسها فى ٢٣ ساعة و ١٥ دقيقة ، وذلك سنة ١٦٦٦ م . ثم تتبَّع العلماء بعدهُ تحقيق ذلك ، فنظر فيه بيانكينى سنة ١٧٢٦ م فأحصى لها ٢٥ دورة فى ٢٥ يومًا و ٨ ساعات ، فخرج لكل دورةٍ ٢٣ ساعة و ٢٢ دقيقة .

وتتابعت الرُّصود من غير هذين ، فكان الخارج متقاربًا على فرق ثوانٍ قليلة ، وحينئذٍ حكموا بأنَّ سنتها تكون مؤلفة من ٢٣١ يومًا من أيامها ، وهى السنة النجمية ؛ وأن سنتها الشمسية تكون ٢٣٠ يومًا . ثم راقبوا مِحْوَر دورانها ، وحدَّدوا ميله على دائرة البروج ، فجعله بيانكينى[1] ٧٥° ، وجعله غيره ممن جاء بعده ٥٥° ، وهو آخر ما جروا على اعتباره . وقد بنوا على ذلك مباحث وتفاصيل شتى فى تعيين المناطق والفصول ، وطول الأيام وقِصَرها ، وما يتبع ذلك من التفاوت فى الحرِّ والبرد ، وحالة الأحياء هناك ، من النبات والحيوان ، إلى غير ذلك من الأحوال المترتبة على هذا الوضع ؛ إلى أن أعلن شيابارلّى الفلكى الإيطالى سنة ١٨٩٠ م نتيجة مراقباته الطويلة ، فزعم أن هذا السيَّار لا يدور على نفسه الدورة اليومية ، ولكنه فى دورانه حول الشمس ، يوجِّه إليها أحد صفحيه على حدّ حال القمر مع الأرض ؛ وعليه فيكون أحد نصفيه معرَّضًا أبداً لأشعة الشمس ، والنصف الآخر فى ظلمةٍ دائمة . فكان ذلك مدعاةً للفلكيين إلى معاودة الرصد والتحقيق ، فمنهم من وافق الفلكى المذكور ، ومنهم من نازعه ، وإلى الآن لم يقع الإجماع على رأيٍ فى هذه المسألة الغامضة[2] ، ولا سيما أن هذا السيَّار ، على ما ثبت لهم بالمشاهدة وتحليل الطَّيف ، يسبح فى ضمن حجاب كثيف من جوّه المتلبّد بالأبخرة والغيوم ، بحيث إن أشعة الشمس تنعكس عن هذا

---

(١) بيانكينى : عالم فلكى فرنسى .

(٢) الغامضة : الصعبة التى لم تعرف .

الجوّ ، لا عن سطح السيّار . وحينئذ فإنّ هذا الأمر سيبقى محجوبًا بحجاب الريب ، إلى أن يتلطّف ما هناك من الأبخرة المتكاثفة ، ويَشِفّ عما تحته ، ولعلّ ذلك لا يتم إلاّ فى ألوفٍ من السنين ، والله أعلم .

ب — فى تاريخ العلم

العلوم عند العرب

إن دولة العلم عند العرب كانت دولةً رفيعة العماد ، فسيحة الظلال ، حافلةً بالألوف من الدارسين والباحثين والمصنّفين ، والعاكفين على الاكتشاف والاستنباط ، والضاربين فى مناكب الأرض بحثًا عمّا أودعتها الطبيعة من الآثار ، والنافضين[1] لآفاق السماء تطلّعًا[2] إلى ما هنالك من الأسرار . لم يدعوا علمًا إلا ولهم فيه يدٌ ، ولا بحثًا إلا ولهم إليه قدمٌ ، فضلاً عما كان فيهم من الخطباء والشعراء والأدباء والكتّاب ، وما كان عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة ونموّ الزراعة . وكان العلم مصباحًا لجنودهم فى كل بلادٍ وطئتها حوافر خيلهم وافتتحوها بسيوفهم ، حتى امتدّت حضارتهم من أطراف آسيا إلى أقاصى إفريقيا وقلب أوربا . أجَلْ[3] ، إن من تتبع العلوم التى كان العرب يتداولونها بينهم ، وجدها بأسرها مقتبسة[4] عن كتب اليونان إلا قليلاً اقتبسوهُ عن كتب الهند والفرس . ولم يثبت أنهم وضعوا علمًا ولا أحدثوا فى أحد العلوم فرعًا مهمًّا ، ولكنهم أوضحوا مبهماتها[5] ووسّعوا مباحثها وصححوا كثيراً من

---

(١) النافضين : من نفض المكان ، تبين ما فيه حتى عرفه .

(٢) التطلع : الاستشراف ، أى رفع البصر إلى الشىء وتشوف النفس إلى إدراكه ووروده ، والعامة وبعض الكتاب المعاصرين يغلطون فى استعماله بمعنى النظر إلى كل شىء .

(٣) أجل : كلمة جواب بمعنى نعم .

(٤) مقتبسة : مأخوذة .

(٥) مبهماتها : ما صعب وخفى معناه .

مسائلها . ولو لبث الدهر مسالمًا لهم إلى هذا اليوم ، لم يبعد أن كانوا بلغوا ما بلغ غيرهم ، ممن تناولوا علومهم وصنائعهم ونزلوا منها منزلتهم . ولسنا نزيد المطالع علمًا أن مدة اشتغال العرب بالعلم لم تكن إلا بضع مئاتٍ من السنين ، كانوا قبلها بقليل أهل نجعة وخيام ، وألاف بادية وأنعام . فما كادوا يألفون تلك العلوم ويتصرّفون فيها تصرُّف أهلها ، بعد أن قضوا السنين الطوال لا يزيدون على تفهُّم مغازيها وحلّ مشكلاتها ، حتى اضطرب حبل دولتهم وانتقضت أحوال جامعتهم ؛ فوقفوا وهم في أوائل شوطهم . ولا شك أن مثل هذه المدة القصيرة ، مع الحال التي وصفناها ، لا تبلغ أمةٌ فيها زيادة على ما بلغتهُ العرب . وإذا تتبعتَ علوم اليونان ، وجدتَ أنهم لم يصلوا منها إلى المبلغ [1] الذى أخذتهُ العرب عنهم ، إلا بعد أن أتت عليهم آلاف من السنين . والذين خلفوا العرب من الإفرنج ، إنما بلغوا هذا الشوط [2] البعيد ، فى هذا الزمن القصير ، لأنهم تلقوا العلم فى مدارسهم ، وتلقنوهُ عن أفواههم ، ونقلوا كتبه إلى ألسنتهم مشروحةً مبسوطة المسائل ؛ فلم يقف فى سبيلهم ما يستوقف خطواتهم عن بلوغ الغاية التى ترمى إليها هممهم . وفضلاً عن ذلك فقد أخذوا عنهم كثيراً من المصنوعات : كالورق والبارود والسكر والخزف والزجاج وتصفية المعادن وتركيب الأدوية ، وفنونٍ من النِّساجة والدّباغة [3] وغير ذلك . وعلى الجملة فقد تناولوا تمدُّنهم تامًّا بحيث إنه لم يتقوض بناؤهُ عند العرب ، إلا وقد قامت حجارته بعينها عند مجاوريهم .

أمّا كتب العرب فهلك أكثرها فى الحروب والغارات ، فمنها ما أتلفهُ العرب أنفسهم : كمكاتب الأندلس التى يقال إن المنصور أحرق أكثرها ، وسائرُها أحرقه الإفر[illegible]ندلس ؛ وكمكتبة بغداد التى أهلكها

---

(١) المبلغ : القدر .　　(٢) الشوط . المسافة .

(٣) النساجة : حياكة النسيج .

هولاكو [١] فى دجلة ؛ ومكتبة الفاطميين ، فى مصر ، التى نهبتها جنود الأتراك ، ثم اختطفتها منهم عرب البادية ، فمزقتها واستعملت جلودها نعالاً ، وتركت الباقى فى الصحراء ، حتى دفنته الرمال ؛ وما بقى ، بعد هذه الحوائج وأمثالها ، استولت عليه أيدى الإفرنج شيئاً بعد شىء ، كما لا يزال الحال إلى يومنا هذا ، وعمرت بهذه البقية مكاتب أوربا .

وقد فُقد ولا شك ، فى تلك الكتب ، شىءٌ كثيرٌ من العلم ، ولكن لا نخال أن هناك علماً ذهب من أصله كما يتوهم بعض المغالين فى أمر هذه الحوادث ؛ فإننا لا نظن أنها كانت تشتمل على غير ما يشبه العلوم الباقية ، ولا ذهب بها شىءٌ يُفتقَر إليه فى جنب العلم الحاضر ؛ وإن كان ثمة شىءٌ لا يعوَّض ، فلا يكون إلا من قبيل التواريخ والتراجم وأوصاف البلاد والأبنية وغيرها ، مما درسته الأيام [٢] ؛ ومن نحو دواوين الشعر والخطب وأشباهها ، من مبتكرات القرائح ؛ وهى ولا ريب مما فُقد منه شىءٌ كثير . على أننا مهما قدّرنا الخطب فيها صغيراً ، تسليةً وتهويناً ، فلا أقلّ من ذهاب أسماء كثيرٍ من مصنّفى تلك الكتب واندراس ذكرهم ؛ وكانوا ولا شك ألوفاً كثيرة من العلماء والمصنّفين ، ممن كانوا فخراً لهذه الأمة ، وعنواناً على عظيم مجدها وارتقائها فى سلّم المدنيّة والعلم . على أن ذهاب تلك الكتب لم يكن مما يؤسف عليه ، لو بقيت الأمة جارية فى سبيل سلفها ، ولا ذهابها هو الذى حطّ الأمة من منزلتها وذهب بعلومها ، ولكن الرُزْء [٣] ، كل الرزء ، ما ابتُليت به الأمة من الخمول [٤] والقعود ؛ وما توالى عليها من التدابر والشقاق ؛ وتعاورها من تسلّط يد الأجنبىّ

---

(١) هولاكو : فاتح تترى فتح بغداد زمن العباسيين سنة ٦٥٦ هـ وكان آخرهم المعتصم .
(٢) درسته الأيام : ذهبت به ولم يبق له أثر .
(٣) الرزء : المصيبة .
(٤) الخمول : الكسل والتأخر .

دهراً بعد دهر ، حتى اضمحلّ العلم منها على التوالى ، ولم يبق منذ مئات من السنين ما يُذكر إلاّ علوم الدين ، قُصِرت عليها الهمم ، ووقفت عندها المدارك ، وتحيّزت بها حلقات الدروس . ثم اندرس الدين كغيره إلا عند الخاصة وقليلٌ ما هم ، فلم يبقَ إلاّ التعصب يزداد عصراً بعد عصر وسنةً بعد سنة ، فكأن تلك العلوم كلها تقمّصت[1] الدين لباساً ، ثم استحال الدين إلى تعصبٍ يقوى كلما ضعفت مدارك أهله ، ويتأصل فى القلوب كلما خلت من العلم ؛ فهو اليوم مجموع علوم الدنيا والآخرة ، والخلَف من تلك العلوم بأسرها . والله يداول الأيام بين الناس ، سبحانهُ ، لا معقّب لحكمه ، وهو الفاعل المختار .

ج — فى العلم الطبعى

كذب الحس وكذب الحواس

يعرِض للإنسان أحياناً ، أن يرى أشباحاً ، أو يسمع أصواتاً لا حقيقة لها فى الخارج ، ولكنها تتصوَّر له بصورة الحقائق الموجودة ، فلا يشكُّ فى صحتها ، وهو من غريب الأسرار المودعة فى الفطرة . وربما كانت تلك الأشباح أو الأصوات موجودة فى الخارج . ولكن الحواسّ تؤدّيها إلى المُدرِكة على خلاف صورتها الحقيقية ؛ وعلى الحالين يكون العقل مكذوباً : إمّا من قِبَل الحسّ نفسه ، كما فى الحالة الأولى ، أو من قبل آلته ، كما فى الحالة الثانية .

وكذِب الحس من الأعراض الدالة على الاختلاط[2] والعَتَاهة[3] بأنواعها

---

(١) تقمصت : لبست قميصاً آخر .

(٢) الاختلاط : اختلاط العقل .

(٣) العتاهة : فقدان العقل . ونقصانه .

إلاّ أنه كثيراً ما يعرِض لأصحّاء العقول ، لكنه إذا تكرر ولَزِم ، أو كان على وجه يبعد كثيراً عن مقتضى المعقول ، كان ، ولا جَرَم ، دليلاً على اختلال العقل ، أو مقدمةً لحدوثه . وأما إذا عرض اتفاقًا ، أو كان غبَّ انهماكٍ [١] مفرطٍ فى أمرٍ من الأمور ، أو على أثر شغلٍ عنيف [٢] ، أو وجدانٍ [٣] شديد التأثير ، فإنه يكون عرَضًا ، ثم يزول بزوال سببه . على أنه فى كلتا الحالتين ، لا يكون إلّا عن اضطراب فى أحوال الدماغ ، وتهيُّج عنيف فى العصب ، وهما كثيراً ما يمرّان بغير أن يؤثّرا فى العقل أثراً ثابتًا ؛ بمثابة ما يقع من الهذيان فى الحميّات ، ثم يزول بزوالها .

أمّا حقيقة هذا الشعور ، وكيفية حدوثه ، فما اشتغل به الحكماء فى كل عصر وصوّروه على أوجهٍ شتّى ، بعضها نَسخَه [٤] تبدُّل الآراء العلمية ، وبعضها لا يزال محلاً للخلاف والبحث . وقد عرّفه المتأخّرون بأنه استحالة الفكر إلى شعور ، وبعبارةٍ أخرى ، تمثل الصورِ العقلية بهيئة صورٍ محسوسة . وأشهر ما ذكروا فى سببه يرجع إلى ثلاثة أقوال : أحدها أنه نتيجة خللٍ عقلىٍّ خاصّ يبتدئ بتهيُّجٍ دماغىّ ، ويحدث عنه اختلاطٌ فى الخياليات ، يؤدّى إلى فقد التوازن بين القوى العقلية . والثانى أنه عملٌ دماغىّ محض ، أى شعورٌ حقيقىّ ، ينشأ بغير وجود مؤثّرٍ فى الخارج ، وحينئذ فلا خلل فى العقل ، وإنما الخلل فى جهاز الحسّ ، بأن يؤدى إلى العقل صوراً زُوريّة ، ويحمله على أن يحكم أحكامًا مُحاليّة [٥] . والثالث أنه أثر شعورٍ سابق ، يتجدد على نفس صورته مع

---

(١) انهماك : تعب .

(٢) عنيف : شديد ، قاس .

(٣) الوجدان : إدراك الشىء بالعقل .

(٤) نسخه : أبطله .

(٥) محالية : مستحيلة أى غير قابلة الحدوث .

زوال المؤثِّر ؛ فهو نتيجة انقباضٍ [١] فى الدماغ ، بحيث يتمثل له الفكر ، من غير انفكاك ويكون على هيئة شعور . وهناك أقوالٌ أخَر لا ترجع إلى حقيقة واضحة ، ولكن على كل حال ، فإن هذا الشعور لا يتمّ ، ما لم يكن ثَمَّة خللٌ فى أعمال الدماغ ، بحيث ينفرد التخيُّل عن الإرادة ، على نحو ما يكون فى حالة الذهول والانجذاب ؛ وحينئذٍ تعمل المتخيلة من تلقاء نفسها ، من غير أن يتوجَّه العقل إلى تأمُّل الصور التى تُمثِّلها ، والحكم عليها .

ومعلومٌ أن بعض المخدِّرات كالحشيش ؛ إذا استولى على العقل يفعل الفعل نفسه ، وحينئذٍ فمن البيِّن أن من ظهر فيه مثل آثار الحشيش بدون أن يتناوله ، يكون دماغهُ وجهازهُ العصبىّ ، فى نفس الحالة التى يكون عليها شارب الحشيش ، أى فى حالة التهيُّج الشديد ؛ ولا فرق فى ذلك بين أن يكون عن سبب طارئٍ [٢] من مثل الأسباب المذكورة قبلاً . أم عن اختلال فى أعمال الدماغ ؛ فهو على الجملة ، ليس إلاَّ حالة مرَضيةً ، أو حالةً عقلية ليست هى الحالة الطبيعية . وهناك مشابهةٌ أخرى بين المشاهَدات التى تُرى فى هذه الحال ، وما يعرض من مثلها فى الحُلم ، مما يدلّ على أن لكلتا الحالتين مَوْرِداً [٣] واحداً ، وهو ما ذُكر من انفراد المتخيِّلة بما تصوِّره للعقل ، وحينئذٍ فهما شىءٌ واحد ، يصحّ أن يقال فيه إنه حُلمٌ فى اليقظة ، أو اختلالٌ فى النوم . ثم إن المشاهَدات المذكورة ، كثيراً ما تعرض للإنسان بعد أن يغمض عينيه ، وقبل أن ينام ، فيرى أشباحًا غريبة ، ويسمع أصواتًا باطنة ، حالة كونه لا يزال مستيقظًا يسمع الأصوات التى حوله ؛ وهى إذ ذاك مَنْزِلةٌ بين الاختلال والحُلم . وإنما

---

(١) انقباض : انكماش .

(٢) طارئ : حادث .

(٣) المورد : المنبع .

يكون ذلك فى ساعة غيبوبة التعقُّل ، حين يدخل الإنسان فى حالة ينتقل منها إلى النوم ؛ ولذلك إذا انتبه ، فعمد إلى تأمُّل تلك المشاهَدات ، تغيب عنه فى الحال ، وهو الدليل على أنها من عمل المتخيلة وحدها ، ولا عمل معها للإرادة التى هى مبدأ التعقل وتميز المُدرَكات .

وأكثر ما يقع كذب الحسّ ، فى مدرَكات البصر والسمع ، لما أنها أكثر الحواسّ إيراداً للمحسوسات على الحِسّ المشترك[1] ، ولأن أثرهما فى الدماغ أشدّ ارتباطاً بالصور المحسوسة مما يَرِد عن سائر الحواسّ ويكثر حدوثه فى الأحوال التى يضعف فيها تأثير المحسوسات على الحواسّ الظاهرة : كالظلمة والسكون والإغراق فى التأمُّلات الباطنة ، وما أشبه ذلك ؛ لأن المتخيّلة حينئذ تخلو بالدماغ ، وتصوّر له التماثيل المختلفة من غير أن يكون لها ما يعارضها من الحسّ الظاهر . ولذلك ترى بعض الناس ، إذا انفردوا ليلا ، أو سافروا فى مَجهَل[2] من الأرض ، تخيّلوا أشباح ضَوارٍ أو لصوص ، وسمعوا أصواتاً مخيفة ؛ ويكثر ذلك عند من تواترت[3] على أسماعهم الخُرافات ، واستحوذت على عقولهم الأوهام والأباطيل ، فتتمثل لهم أشباح العفاريت والجنّ والغيلان وأشباه ذلك مما اختُزن فى خيالهم .

وأمّا فى مدرَكات ما سوى هاتين الحاسّتين : فلا يقع مثل ذلك إلاّ فى حالة الاختلال العقلى ؛ فإنّ المعتوهين قد يشعرون بروائح وطعوم وهميّة ، ويتخيلون أحياناً أن يداً تلمسهم ، أو أنهم يُضرَبون أو يُوثَقون ، وكل ذلك

---

(١) الحس المشترك : تعبير فلسفى هو القوة الباطنة التى ترتسم فيها صورة الجزئيات المحسوسة بعد ما توردها عليها الحواس الظاهرة .

(٢) المجهل : الأرض المنقطعة التى لا ساكن فيها .

(٣) تواترت : جاءتهم بالتتابع .

لا يعرض للأصحّاء إلاّ ما كان منه نادراً فى الحلم ، وهو ما يؤيّد الشبه بين الحلم والاختلال[١] .

وأمّا كذب الحواس ، فيكون العقل معه صحيحًا ، لأن المدرَكات تكون متحققةً فى الخارج ، ولكنها تتأدى إلى العقل على خلاف ما هى فيحكم بمقتضاها . وكذلك الحاسّة تكون سليمةً أيضًا ، غير أنها تلتبس عليها أعراض المحسوسات ، إمّا لشىء فى المحسوس كما تُرَى العصا المغموس طرفُها فى الماء مكسورةً ، وكما يُرَى السراب ماءً ؛ أو لشىء فى الحاسّة نفسها ، كما يُرَى النجم ذا شعاع متشعب ، وإنما هذه الشُّعَب فى بِلّورية العين . وأما إذا كانت الحاسّة مَوْؤوفة[٢] كما يحدث أحيانًا فساد الذوق لحالة مَرَضيّة ، فيتغير بهذا السبب طَعمُ المَذُوقات ، وكما يتفق لبعض الناس أن يفقد الذوق والشمّ بتّةً ، أو أن لا يفرق بين بعض الألوان كالأحمر والأخضر لم يكن ذلك فى شىء مما نحن فيه .

وكذِبُ الحواس أكثر ما يقع للبصر لاختلاف ما يرد عليه من أعراض المُبصَرات ، إذ به يُدرَك اللون والشكل والحجم والمسافة والوضع وغير ذلك . وأكثر ما يخطئ البصر فى تقدير حجم الأشباح إذا اختلف لونها ، كما إذا كان أحد الشبحين أبيض ، والآخر أسود أو قريبًا منه ، فإن الأبيض يُرَى أكبر حجمًا ، وعلّته انتشار النور عنه ، حتى كأنه يفيض عن أطرافه ؛ وبعكسه الأسود ، ولا سيما إذا كان محاطًا ببياض ، فإنّ البياض الذى حوله يسطو عليه ، حتى كأنه يأخذ شيئًا من أطرافه . ولهذا السبب نرى الهلال ، فى أوائله ، أطول عند طرَفيه مما يليه من القسم المظلم المنعكس إليه نور الأرض ؛ ونرى بعض النجوم أكبر من بعض ، تبعًا لشدة ضوئها ، حتى نتوهم أن

---

(١) الاختلال : اختلاط فى العقل .

(٢) موؤوفة : أى مصابة بآفة ، والآفة : الشىء الفاسد المرذول .

لبعضها قُطراً محسوساً ؛ مع أنها ترى جميعاً بالمرقب (التلسكوب) أشبه بنُقَط هندسية . وبهذا الاعتبار كان المتقدمون يقدّرون أقطار السيارة أعظم مما هى . فإنّ تيخو براهى ، مثلاً ، كان يقدّر حجم الزُّهَرة أكبر مما هو باثنى عشر ضعفاً ؛ وكان كبلر يقدّره أكبر بسبعة أضعاف . ولكن لما اخترعت المناظير ، أمكن أن يُرَى كل من السيّارة والثوابت على حجمه النسبىّ ، لأنها قللت كثيراً من انتشار النور وإن لم تقطعه بالمرّة .

وهناك أمرٌ آخر ، وهو أننا نرى الشمس والقمر وصُور الكواكب عند الأفق ، أعظم مما تُرَى بعد ارتفاعها مسافة فى السماء ، وهو من الأمور التى لم يتوصلوا إلى بيان علّتها على وجه يكفل بالاقتناع ، ولكنه على كل حال راجعٌ إلى خطإ البصر ؛ لأن الكبر والصغر فى مرأى الشبح الواحد ، إنما يتأتّيان عن القرب والبعد ، وليس فى مسافة الشمس والكواكب ما يظهر فيه مثل هـذا الفرق . على أنه لو كان هذا مما يؤثّر فى منظرها ، لوجب أن تُرَى عند الأفق أصغر ؛ لأنّا لو قسنا القمر وهو عند الأفق ، ثم قسناه وهو فى السَّمْت[1] لوجدنا قُطره عند الأفق أصغر بنحو ١ من ٦٠ من قُطره فى السمت ؛ لأنه حينئذ يكون أبعد عن الناظر بأربعة آلاف ميل التى هى قياس نصف قطر الأرض .

ومن كذب البصر أن تظهر الألوان على غير ما هى ، وهو محمولٌ فى الغالب على تعب الشَّبَكية[2] وذلك كما إذا وُضع أمام العين لونٌ أحمر ، ونَظَرت إليه مدةً ، فإن الجزء من الشبكية المتأثر بالأحمر ، يستمرّ بعد ذلك حيناً لا يشعر بهذا اللون ؛ فإذا عُرض على العين ، والحالةُ هذه ، رقعةٌ بيضاء فإنّ هذا الجزء منها لا يبصر إلاّ اللون المتمّ للأحمر ؛ فيظهر ما يقع عليه من لون الرقعة أخضر .

---

(١) فى السمت : خط مستقيم طولا يكون من الأعلى إلى الأدنى موازياً لرأس الإنسان .

(٢) الشبكية : أى شبكية العين ، وهى أجزاؤها المتداخلة .

ومثله ما إذا كتب الإنسان ، مدة ساعة أو نحوها بالحبر الأحمر ، ثم نظر بعد ذلك إلى صحيفة مكتوبة بالحبر الأسود ، فإنه يراه أخضر . ومما يعسر تعليله فى هذا المقام ، أنه إذا وضع لونان مختلفان ، أحدهما بجانب الآخر ، لا يُبصَران كما لو وُضع كل منهما وحده ، ولكن يُرَى كل منهما كأنه قد أضيف إليه شىء من مُتمّ الآخر . وعليه فإذا وُضع الأحمر بجانب الأخضر ، ظهر الأحمر أشدّ حمرةً ، والأخضر أشدّ خضرةً ؛ وإذا وُضع الأحمر بجانب الأزرق ، يميل الأزرق إلى الأخضر ، والأحمر إلى النارَنْجى [1] .

وأمثلة كذب البصر كثيرة ، منها فى اللون ، ومنها فى الحجم ، أو الشكل ، أو غير ذلك مما ذُكر فلا نطيل بها . وعلى كذب البصر بُنيت صناعة التصوير وتمثيل ما فى الأشباح من دقائق الأجزاء الشاخصة والغائرة المقوِّمة لأشكال الأجسام ؛ وإليه المرجع فى كل ما يرى من الصور البديعة الصنع ، التى يتنافس بها المصورون ، وتُبذَل فيها الألوف من الدنانير . وليس منّا إلاّ من رأى منها ما هو بالغٌ أتمّ مبلغٍ من استحكام الصنعة ، حتى قد يتوهم الرسوم المصورة أشباحًا مجسَّمة . وإنما هى كذلك عند الباصرة ؛ وأمّا عند اللمس فليست إلاّ أطلِيَةً ساذجة على ألواحٍ بسيطة . وقس على ذلك ما يتعاطاه بعضهم من الشعوذات المختلفة ، مما حيَّر عقول الأغرار ، وأوهمهم وجود السِّيمياء [2] والطلاسم إلى غير ذلك .

أمّا كذب بقية الحواسّ ، فهو أقلّ كثيراً لقلّة ما يقع فى محسوساتها من الاشتباه ، وهو لايكاد يعرِض إلاّ للسمع واللمس ، وذلك كما إذا احتجبت جهة

---

(١) النارنجى : أى لون أحمر كلون الرمان .

(٢) السيمياء : ضرب من الألعاب السحرية ، تحدث فيها مثالات خيالية لا وجود لها فى الحقيقة .

الصوت ، وردّه الصدى من جهة أخرى ، فإنّ السامع يتوهمه صادراً من تلك الجهة . ويقرب من هذا ، الإيهام الذى يفعله المتكلم من جوفه ، فيوهم السامع أن المتكلم غيره . وكما إذا وضع الإنسان يده فى ماء حار ثم غمسها فى ماء فاتر ، فإنه يشعر بذلك الماء بارداً . وإلى مثل هذا السبب ، يرجع ما نجده من برد ماء الينابيع فى الصيف وفتوره فى الشتاء ، مع أن درجة حرارته فى الحالين واحدة . وفى جميع ما ذُكر ، لا بدّ لإدراك حقيقة المحسوس من الاستعانة بحاسّة أخرى ، أو الرجوع إلى قياس العقل أو التجربة . وعلى كل حال ، فالعقل هو قاضى محكمة الحواس ، وإليه ينتهى الفصل فى كل ما يُعرَض عليه منها ؛ فإذا عُزل عن منصّته ، أو ضلّ فى حكمه ، لم ينفع بعضَها شهادةُ بعضٍ ، ولم يُوثَقْ منها بحكم صحيح .

٤ – إبراهيم اليازجى اللغوى

١ – دراسات

اللغة والعصر

كتبه يوم انصرف الأدباء إلى تحصيل ملكة الكتابة العربية الصافية والتضلع من اللغة بحقيقتها ومجازها :

لم يبقَ فى أرباب الأقلام ومنتحلى صناعة الإنشاء، من هذه الأمّة ، من لم يشعر بما صارت إليه اللغة ، لعهدنا الحاضر ، من التقصير بخدمة أهلها ، والعُقم بحاجات ذويها ، حتى لقد ضاقت مُعجَماتها بمطالب الكتّاب والمعرّبين ، وأصبحت الكتابة فى كثيرٍ من الأغراض ضرباً من شاقّ[1] التكليف ، وبابًا

(١) الشاق : المتعب .

من أبواب العَنَت . واللغة لا تزداد إلا ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعُّب طرق التفنن فى المخترعات والمستحدثات ، إلى أن كادت تُنبَذ[١] فى زوايا الإهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومسّت الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من الثُّلَم قبل تمام العفاء ، وقبل أن ينادى عليها مؤذّن العصر : سبحان من تفرّد بالبقاء ، ويُختَم على مُعجَماتها بقصائد التأبين والرثاء .

تلك هى اللغة التى طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر[٢] الألسنة مادّةً ، وأوسعها تعبيراً ، وأبعدها للأغراض مُتَنَاوَلاً ، وأطوَعُها[٣] للمعانى تصويراً ؛ قد أفضت[٤] اليوم إلى حال لو رام الكاتب فيها أن يصف حجرة منامه ، لم يكد يجد فيها ما يكفيه هذه المؤونة اليسيرة ، فضلاً عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ، ومنازل المترَفين والأغنياء ، وشوارع المدن الغناء ، وما ثَمَّ من آنية وأثاث وملبوس ومفروش ، وغير ذلك من أصناف الماعون وأدَوات الزينة ، مما لا يجد لشىء منه اسماً فى هذه اللغة ؛ ولا يكون حظّ العربىّ من وصفه إلاّ العِىّ والحَصَر[٥] ، وطىّ لسانه على معانٍ فى قلبه لا يتسنى له إبرازها بالنطق ، ولا يجد سبيلاً إلى تمثيلها باللفظ ؛ كأنّ المقاطع التى يعبّر بها عن هذه المشخَّصات لم يُخلَق لها موضعٌ بين فكَّيه ؛ وليست مما يجرى بين لهَاته[٦] وشفتيه ، فعاد كالأبكم يرى الأشياء ويميّزها ، ولا يستطيع أن يعبّر عنها إلاّ بالإشارة ، ولا يصفها إلاّ بالإيماء .

---

(١) تنبذ : تلفظ ، تترك جانباً .
(٢) أغزر : أوفر .
(٣) أطوعها : ألينها .
(٤) أفضت : صارت .
(٥) الحصر : العى فى النطق وعدم الإفصاح عن المعنى .
(٦) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق من أعلى الفم .

وياليت شعرى ، ما يصنع أحدنا ، لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ، ورأى ما ثمَّة من المسمَّيات العُضوية وغير العُضوية ، من أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن ؛ وعاين[1] ما هناك من الآلات والأدَوات وسائر أجناس المصنوعات ، وما تتألف منه من القِطَع والأجزاء ، بما لها من الهيئات المختلفة ، والمنافع المتباينة ؛ وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات ؟

ثم ما هو فاعلٌ ، لو أراد الكلام فيما يحدث ، كل يومٍ ، من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماوية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التى لا تغادر جليلاً[2] ولا دقيقًا إلا تدل عليه بلفظه المخصوص ؟

لا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرَّك له به لسان ، ولا يعهد له ، بين ألواح معجمات اللغة ، ألفاظًا يعبِّر بها عنه ، ولا يغنيه فى هذا الموقف ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ، ومئتى اسمٍ للخمر ، وخمسمائة للأسد ، وألف لفظة للسيف ، ومثلها للبعير ، وأربعة آلاف للداهية ، وما يفوت الحصر لشيءٍ آخر حرص مؤلِّف القاموس على استقصاء ألفاظه ، حتى لم يكد يذكر مادَّةً إلاَّ وفيها شيءٌ يشير إليه ويدلُّ عليه !

على أن اللغة مرآة أحوال الأمّة ، وصورة تمدّنها ، ورسم مجتمعها ، وتمثال أخلاقها وملَكاتها ، وسجلّ ما لها من علوم وصنائع وآداب . وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها فى الخطاب ، وما يتمثل فى خواطرها ، أو يقع تحت حسها من المعانى . ومعلومٌ أن العرب واضعى هذه اللغة ، كانوا قومًا أهل بادية ،

---

(١) عاين : شاهد .

(٢) جليلا : عظيما .

بيوتهم الشعر والأديم[١] ، ومفرشهم البارىّ[٢] والبلاس[٣] ولباسهم الكساء والرداء ، وأثاثهم الرحى والقِدْر ، وآنيتهم القَعْب والجَفنة[٤] ، إلى ما شاكل ذلك مما لا يكادون يَعْدُونه فى حِلّ ولا ترحال . فأين هم ، وما نحن فيه ، لهذا العهد ، من اتساع مذاهب الحضارة ، والاستبحار فى الترَف واليسار ، وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق[٥] وأنواع الأثاث والزخارف ؛ وما نحن فيه من التفنن فى أحوال المجتمع والمعاش ، فضلاً عما بلغ إليه أهل هذا العصر من التبسُّط فى مناحى العلم والصناعة ، مما كان أولئك بمعزِل عن جميعه ؛ إلاّ ما حدث بعد ذلك فى عهد استفحال الإسلام مما ذهب عنّا أكثره ، وما كان فيه لو بلغ إلينا إلا غَناءٌ قليل .

ومهما يكن من حال أولئك القوم ، وضيق مُضطرب الحضارة عندهم ، وما نجد فى ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن ، فلا يتوهمنّ متوهمٌ أن ذلك واردٌ على اللغة من هرمٍ أدركها ، فقعد بها عن مجاراة الأحوال العصرية ، وأناخ بها فى ساقة الألسنة الحاليّة[٦] فإن معنى الهرم[٧] فى اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد خلت ألفاظها عنها ؛ ثم تضيق أوضاعها عن إحداث[٨] ألفاظ تؤدّى بها تلك المعانى ، فيطرأ على اللغة النقص ، حينًا بعد حين ،

---

(١) الأديم : الجلد .
(٢) البارى : الحصير المنسوج من القصب .
(٣) البلاس : بساط نسج من شعر الماعز .
(٤) القعب : القدح الضخم يصنع من الخشب . الجفنة : القصعة الكبيرة .
(٥) المرافق : الأشياء التى ينتفع بها .
(٦) ساقة الألسنة : أى مؤخرة اللغات .
(٧) الهرم : الشيخوخة .
(٨) إحداث : وضع .

إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها، ولا تبقى صالحةً للاستعمال ؛ وحينئذٍ فلا يبقى إلاّ أن يُلقى حبلها على غاربها[1]، أو يستعان بغيرها على سدّ ما عرض فيها من الخلل، بما يغيّر من ديباجتها ، وينكّر أسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن ؛ وتصير ، على الجملة ، لغة أخرى .

وليس بمنكَرٍ أن ما وصفناه من هذه الحال يشبه فى بادى الرأى ما نشاهده من حال لغتنا اليوم ، وما لم نزل ننعاه عليها ، منذ حين ، من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية ، إلاّ أن ذلك إذا استقريتَ أوجهه وأسبابه ، وسَبَرتَ غَوْر اللغة فى نفسها ، وقست مبلغ استعدادها ، علمتَ أنه ليس منها فى شىء ، وأيقنْت أنها لا تزال فى رَيْعان شبابها وطور ترعرُعها ، وأن فيها بقيّةً صالحة لأن تجارى أوسع اللغات وأكثرها مادّة ، ولكن ما أدركها من ذلك واردٌ من قِبَل الأمّة ، وتخلّفها فى حَلْبة الحضارة والمدنية ؛ إذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهرمهم ، وإنما هى عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدُو ألسنتهُم ما فى خواطرهم ، ولا تمثّل ألفاظهم إلا صوَر ما فى أذهانهم . وبدهىّ أن اللغة لم توضع دفعة واحدة ، وإنما كان يوضع منها الشىء بعد الشىء ، على قدر ما تدعو إليه حاجة المتكلمين بها وقد اختصّت هذه اللغة بمزيّة عزّ أن توجد فى غيرها ، وهى أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظىّ أو المعنوىّ ، بحيث صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذى لا تكاد تضاهيها فيه لغة ، على كونها من أقلّ اللغات أوضاعًا ، إلا أنها من أكثرهنّ صيَغًا وأبنية ، وهو السر فى قبولها هذا الاتساع العجيب ، فضلاً عما فيها من تشعُّب طرق المجاز .

واعتبرْ ما ذكرناه من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليه اللغة زمن الجاهلية

---

(١) يلقى حبلها على غاربها : أى تترك وشأنها ، تذهب حيث شاءت . والغارب : رتبة الجمل وهو تعبير صحراوى .

وفى صدر الإسلام ، ومقابتلها بما بلغت إليه على عهد الخلفاء من بنى العبّاس ؛ بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح ، وتنبُّه الأمّة لطلب العلوم وتبسُّطها فى فنون الحضارة ، بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية ، إلى أبعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك ، لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً أعجمياً[١] ولا اضطُرُّوا فيها إلى وضعٍ جديد ، ولكنها خدمتهم بنفس أوضاعها التى وضعتها العرب ، فاشتقُّوا منها ما لا عهد به للعرب ، على وجهه الذى نقلوه إليه ، ولم تتكلم به أصلاً ؛ حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان ، وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الأمم التى اجتاحوها[٢] شرقاً وغرباً ، وزادوا على ذلك كلّه ما استنبطوه[٣] بأنفسهم . واللغة مشايعةٌ لهم فى كلّ ما أخذوا فيه ، لم تنضب مواردها دونهم ، ولا رأينا من شكا منها عجزاً ولا تقصيراً ، إلى أن أدركهم من تبدُّل الأطوار ، وغارات الأقدار ، ما وقف بهم عند ذلك الحدّ ، فوقفت اللغة عند ما نراه فيما وصل إلينا من كتبهم . وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأمّة ، وتتابعت دواعى الدمار ، حتى اندرست أعلام حضارتها ، وذهبت علومها أدراج الرياح ؛ فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها ، حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أمّة متمدنةٍ ، ولا هو أهلٌ لأن يُبلَغ به ما منزلته تلك . ولذلك فإن كان ثمّة هرمٌ فإنما هو فى الأمة لا فى اللغة لأن ما عرض لها من الهجر والإهمال غير لاحقٍ بها ، ولا ملحقٍ بها وهناً[٤] ولا عجزاً ، وإنما هو عجزٌ فى ألسنة الأمّة ومداركها ، وتأخرٌ فى أحوالها واستعدادها . ولو صادفت ، من أهلها ، البقاء على عهد أسلافهم من السعى فى سُبُل الحضارة وتوسيع نطاق

---

(١) يستثنى من ذلك كتب الطب .
(٢) اجتاحوها : دخلوها بعامل الفتح .
(٣) استنبطوه : اخترعوه بأنفسهم .
(٤) الوهن : الضعف والتعب .

العلم ، لم تقصّر عن مشايعتهم فى كل ما فاتهم من الأطوار ، حتى تبلغ بهم إلى مجاراة العصر الحاضر .

ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك ، لم يُزَد فيها حرفٌ ، بل لم يكد يُحفَظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية . على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يومًا بعد يومٍ ، بما طرأ[١] على أهلها من الضغط والفاقة[٢] ، وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلّص العمران وذهاب الحضارة من بينهم ، حتى عادت حوائج كثير من أهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدّى حوائج البدوىّ والأكّار[٣] . وما دامت المعانى التى يعبّر عنها باللغة معدومة ، فلا سبيل إلى الألفاظ الدالّة عليها ، إذ اللفظ إنما يُتّخذ للعبارة عن الخواطر التى فى النفس ، فلا يكون إلاّ على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كله ذهابُ ما كتب المتقدمون : بعضه بالإحراق كما تمّ فى مكتبة قُرطُبة ؛ وكأنّ هذا فى مقابلة ما وقع من مثله بالإسكندرية وفارس[٤] . . . وبعضه بالاجتياح[٥] والنهب ؛ فلا بقى فى مكانه ينتفع به المتأخر ، ولا احتفظ به الذى نهبه لجهله قيمته . وبقى الشىء اليسير نجده اليوم فى مكاتب الأعاجم ، وأكثره مما اشتُرى من أيدينا بالذهب . . . فلا غرو إن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهابُ هذه اللغة من ألسنة الأعقاب ، حتى لو رام أحدنا إثارة دفائنها وتعهّدها بالتجديد والإحياء لما وجد منها فى البلاد إلاّ الشىء النّزر[٦] لا يعدو ، فى الغالب ، علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد أهل بلادنا يحافظون على سواه .

---

(١) طرأ على : أصاب .
(٢) الفاقة : الحاجة والفقر .
(٣) الأكار : الحراث .
(٤) فارس : بلاد إيران « العجم » .
(٥) الاجتياح : فتح الجيوش للبلدان والدخول إليها عنوة .
(٦) النزر : القليل .

ب ــ فى المفردات والتراكيب

فصل

فى السمع [1]

تقول : سمعت الرجلَ يقولُ كذا ، واستمعته ، وسمعتُ كلامه ، وسمعتُ صوته ، وآنستُ صوته ، ووجدت حسَّه ، وسمعتُ له رِكزاً [2] وسمعت له حسّاً وحسيساً ، وما سمعتُ له حسّاً ولا جَرْساً [3] وقد سمعتُ كذا ، وقرع سمعى ، ومَرَّ بسمعى ، وورد على سمعى ، ووقع فى سَماعى ، وبلغ مسامعى ، وذلك سمع أذنى ، وسماع أذُنى ، وهذا كلام ما استكَّ فى مسامعى مثله ، وما سلكَ سمعى مثله . وما استأذن على سمعى مثله ، وتقول سَمْعُ أذُنى فلاناً يقول كذا ، وسَمْعُهُ أذنى كما تقول : رأى عينى وقال ذلك سمع أذنى ، وسماعُ أذُنى ، وسمعاً قاله ، أى قاله مسمعاً [4] وتقول سمعت له ، وإليه ، وأصغيت له ، وأصختُ له ، وأرعيته سمعى ، وراعيتُه سمعى ، وأقبلتُ عليه بسمعى ، ورفعتُ له حجابَ سمعى ، وراعيتُه سمعى ، وألقيتُ إليه السمع . وتقول لمن تحدّثه : سمعك إلىّ ، وسَماعَكَ إلىّ ، وسَماعِ كحذارِ ، أى : اسمع ، وتقول تسمَّع فلان إلى حديث القوم ، وإنَّه ليسترق السمع إذا كان يتسمع مختفياً . . .

---

(١) ننقل هذه المختارات عن كتاب (نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد) .

(٢) الركز : الصوت الخفى .

(٣) الجرس : بالفتح والكسر ، الصوت الخفى وقيل هو بالفتح وبكسر مع الحس للازدواج .

(٤) هو من وضع المصدر المجرد موضع المزيد وانتصابه على الحال .

فصل
فى الذوق

تقول : ذقت الطعامَ والشراب ذوقًا وذَواقاً ، وطَعِمتُه طُعمًا « بالضم » وتطعَّمته. وفى المثل تطعَّم تَطعَم . أى ذق تشته ِ،وطعام مرّ المذاق والمذاقة ، ومر الطَّعم « بالفتح » . .

وتقول : هذا طعامٌ حلوٌ ، وإنه لصادق الحلاوة ، محضُ الحلاوة ، خالص الحلاوة ، وتمر وعَسل حَمْتٌ وَحميتٌ ، أى شديد الحلاوة . وهو أحلى من المَنّ ، وأحلى من القند(١) وأحلى من الشَّهْد ، وأحلى من الضَرَب(٢) ، وإنما هو الشهد المصفّى ، والسكّر المكرر . . .

وهذا طعام كَفْن أى لا ملح فيه ، وماء عذب ، وزلال ، وفُرات ، ورُضاب وسلسال ، إذا كان خالصًا لا ملوحة فيه . ويقال رجل حثِر اللّسان ، كما يقال : حَثِر الأذن ، أى لا يجد طعم الطعام .

فصل
فى العشق والخلو

يقال : أحب المرأة وهوِيَها ، وَعَشِقها ، وتعشَّقها ، وعَلِقها ، واعتلقها ، وتعلَّقها ، وصبا إليها ، وَكَلِفَ بها ، وَهام بها ، وأغْرمَ بها ، وَوله بها ، وولِعَ بها ووقعت بقلبه ، وأخذت بمجامع قلبه وَأشرب قلبُه حبَّها ، وملك حبها عنانَه . وهو بها صبّ ، كَلِف ، مغرم ، هائم ، ومستهام . وهو بها

---

(١) القند : عسل قصب السكر .
(٢) الضرب : العسل الأبيض .

كليف الفؤاد ، كليف الضلوع ، عميد[١] القلب . وقد أصبته المرأة وتصبته ، واستهوته ، ودلهته[٢] واختبلته[٣] وهيمته . . .

فصل

فى الإخبار والاستخبار

يقال أخبرنى فلان كذا ، وبكذا ، وخبرنى وأنبأنى ونبأنى ، وعرفنى وأعلمنى ، وأبلغنى كذا ، وبلغنيه ، وحدثنى بالخبر ، وقصه علىّ ، واقتصه علىّ ونقله إلىّ ، وأنهاه إلىّ ، وأوصله ، وساقه ، ورفعه ، ونماه . وقد بلغنى خبرُ كذا ، وأتانى ، وجاءنى ، وورد علىّ ، وانتهى إلىّ ، وتأدى إلىّ . . .

٥ — إبراهيم اليازجى فى رسائله

رسالة إلى صديق

. . . لو أجبتُ داعىَ الشوق لَمَّا دعا ، وكنت لحافز[٤] الذكر طيّعًا ، لسلّمت كلّ خافقة[٥] كتابًا ، ولحمّلت كلّ بارقة خطاباً ، ولكنّى أزجرُ لجاج[٦] الشوقَ بالصبر ، وأقمع سَوْرة[٧] الذكر بالحلم ، إلى أن يبدّل الله

---

(١) عميد : من قولهم عمده المرض أى فدحه وأثقله .

(٢) دلهته : أذهبت عقله .

(٣) اختبلته : أذهبت عقله .

(٤) الحافز : العاجل .

(٥) الخافقة : نابضة من نبضات القلب .

(٦) اللجاج : الإلحاح وطلب الشىء بشدة .

(٧) السورة : الوثبة ، والشدة .

وجوه الصحائف بصفحات الوجوه ، جعل الله موعد اللقاء قريبًا ، ومتّعنى بأنسك وأنت على ما تروم من حسن الحال ، ورخاء البال .

رسالة أخرى إلى صديق

. . . كلما لجَّ بنا داعى الشوق ، وضاقت بنا مسافة الصبر ، عمدنا إلى هذه الصحف نسوّدها بشكوى الفراق ، ونشحنها بعتاب الدهر ، ونطويها على لواعج[١] الصدر ، ثمَّ سيَّرناها والشوقُ باقٍ ، والشكوى لم تبرح ، والذكرى مناط[٢] النسيم كلّما خفق ، والبرق كلّما ائتلق ، والطير كلّما صدح ، والروض كلّما نفح ، يومٌ يمرّ ويأتى غده ، والأمانى تتوقّع يومًا لا نجده .

شكر

مهما زدتنى من جميلك المألوف ، وصنيعك المعروف ، فما أزيدك على ما ينطق به لسان حالى من الاعتراف بتطوّلك[٣] والثناء على تفضّلك ، ولا سيّما فيما أبديت من الحفاوة[٤] واللطف فى جانب أخى وأخيك ، النازل فى كنف[٥] تدبيرك ، الموكول إلى حسن رأيك ، وهى يدٌ لك حملت جميلها على عاتق[٦] ، فوق ما أثقلتْه أياديك السابقة ، وألطافك السالفة ، وإنى لآمل له بمؤازرتك[٧]

---

(١) لواعج : جمع لاعجة : حرقة واشتعال .
(٢) مناط : اسم لموضع التعليق وقولهم : هو منى مناط الثريا أى فى البعد .
(٣) التطول : التفضل والمنة .
(٤) الحفاوة : الإكرام وحسن الاستقبال .
(٥) الكنف : الجانب .
(٦) العاتق : ما بين الكتفين .
(٧) المؤازرة : المساعدة .

نجحاً لا يعترضه إخفاق مسعى ، وفوزاً لا يصدف عنه طيش رأى . وأسأل الله له السلامة والتوفيق بمنّه وطوله .

نعى

. . . ورد كتابك العزيز وأنا مشتغل من مرض سيّدتى الوالدة بما أذاب العيون أرقّا ، واستطار القلوب قلقاً ، حتّى قضى الله بما تابع الحسرات ، وجدّد العبرات ، فإيّاه أسأل أن يعوّضنى طول بقائك ، ويعزّينى بقرب لقائك ، بمنه وكرمه .

عزاء

. . . من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع [1] ، فلم يصحب دهره على غِرّة [2] ، ولم يغتر من الأقدار بفترة ، لم تكبر عليه الرزيئة [3] إذا اغتالت [4] ، ولم يطمئنّ إلى السلامة وإن طالت ، فإن الدهر رقدة وهَبَّة ، وإن الليالى كمنة ووثبة ، ومثلك مَن أدرك مبادئ الأمور ومصايرها ، وعرف موارد الحياة ومصادرها . وإنما الموت طورٌ من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة فى الموجود ، ولا أزيدك علماً بالكون وشرائعه ، والكائن وطبائعه ، إنما هى ذكرى لمن فجأه الرزءُ فشغله ، وحلّ بساحته القضاء فأذهله ، وحسبى من التعزية علمى بما عندك من موارد العلم المباح ، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح . وما أخلقنى بأن أقول : إنّ رزءَك هـذا قد

---

(١) المصارع : جمع مصرع ، مقتل .

(٢) غرة : غفلة .

(٣) الرزيئة : المصيبة .

(٤) اغتالت : أصابت وأخذت غيلة ، على حين غفلة .

زادنى شجنًا على أشجانى ، ونكأ ما تماثل من قرحة أحزانى ، ولكنّى قد صيَّرنى الدهر إلى حال لا تعمل فيها حال ، ولا أبالى بسلمٍ ولا قتال ، فكأنما إياى عنى أبو الطيّب حيث قال :

رمانى الدَّهْرُ بالأَرزاءِ حتَّى ... فؤادى فى غشاءٍ من نِبال

فصرتُ إذا أصابتنى سهامٌ ... تكسَّرتِ النصالُ على النِّصال

٦ — إبراهيم اليازجى الوصَّاف

سوريا

وهذه نزعة اجتماعية وطنية يرسلها الشيخ نفثة من صدر متألم على البلاد ويدعو فيها إلى الاتحاد ، قال :

سوريا هى القطر الذى كسته الطبيعةُ حلّة الجمال ، فزيَّنتها يد الإنسان ، وخصَّته بمزايا تفرَّد بها عن المثال ، فعادت عليه بالخسران ، وتباب[1] السكان . جوٌّ صافى الأديم ، لا يكفهرُّ[2] إلاّ ليجودَ السحابُ بالقطر ، ويترقرق ماءُ العيونِ على حصباءَ[3] كالدرّ ، فتتبسَّم الرياضُ فيه عن ثغور الزَّهْر ، وهواءٌ لا يهبُّ إلاّ عبقت أردانهُ[4] بشذا العِطْر ، فيبعثُ الحياة هبوبهُ ، ويمازِجُ الأرواحَ طيبُه ، وسهولٌ فسيحة الأطراف ، خصيبة الأكناف[5] ، تتدفّق فى جوانبها الجداول[6] والأنهار ، وتنمى فى مناكبها[7] الحدائق الملتفّة الأشجار ،

---

(١) التباب : الهلاك ، البوار .

(٢) اكفهر الجو : أظلم لكثرة السحاب .

(٣) الحصباء : الحصى .

(٤) عبقت أردانه : الردن طرف الكم الواسع . ويريد أن الهواء يتضمخ برائحة الأزهار العطرة .

(٥) الأكناف : جمع الكنف : الجانب .

(٦) الجداول : جمع الجدول ، وهو مجرى الماء الصناعى .

(٧) المناكب : جمع المنكب ، ما بين الكتف والظهر .

الطيّبة الثمار ، وجبال احتبكتْ شِعابُها ، وتناوحت[١] هضابُها[٢] ونشزت[٣] صخورُها وآكامُها ، وكُلِّلَتْ بالثلج هامُها[٤] ، واخضرّت سفوحُها ، واخضلّت آجامها[٥] فكانت معقلاً للشريد ، ومعتصماً للطريد .

هذه سوريّا التى سبقت فى المدنيّة والحضارة ، واكتظّت بالسُّكّان والعمارة ، وإنما بلغت هذا الشأن العظيم بالزراعة والصّناعة والتجارة . وهى تمتدّ من البحرِ المتوسّط غربًا ، إلى الفُراتِ والباديةِ شرقًا ، ومِنْ آسيا الصغرى شمالاً ، إلى حدودِ مِصرَ جنوبًا ، فتشمل على القطر المعروف من قديم الزمان بأرضِ الموعد ، والأرض المقدّسة .

وقاعدتُها دمشق العريقة[٦] فى الحضارة ، المتقادمة العهدِ فى المدنية ، جنّة الأرضِ المنقطعة النظير ، فى جمال غوطتها ، وحُسن موقعها ، وصفاءِ مائها ، واعتدال هوائها ، وطيب ثمارها ، وكثرة حدائقها . . .

وما عداها من مدن سوريّا القديمة قد عفاها تقلّب الأحوال ، فلم يبق منها إلاّ رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها[٧] الآن قرًى حقيرة ، منتشرة فى هاتيك الربوع الداثرة[٨] يأوى إليها شراذم[٩] من بقايا الأمم الغابرة ، كأنّها لم تبقَ إلا لتشهدَ بما تجنيه الحروبُ من الدّمار ، وما يحدثه تفريقُ الكلمة من التبابِ والبوار .

---

(١) تناوحت : تقابلت .
(٢) الهضاب : جمع الهضبة وهى الجبل يعلوه انبساط .
(٣) نشزت : ارتفعت وظهرت .
(٤) هامها : جمع هامة وهى الرأس .
(٥) آجامها : جمع الأجمة وهى الأشجار الكثيرة .
(٦) العريقة : المتأصلة ، القديمة . الحضارة : التمدن .
(٧) الأنقاض : جمع النقض وهو المهدم من الأبنية .
(٨) الداثرة : البالية .
(٩) الشراذم : جمع الشرذمة وهى الجماعة القليلة من الناس .

٧ـ إبراهيم اليازجى الحكيم

حكم مأثورة

تتردد كثير من الحكم فى مقالات الشيخ ومصححاته وكلها تنبئ عن مبادئ قويمة وأخلاق عالية وصفات حميدة وأمثلة تحتذى وهاك بعضها :

« التحدث فى الخسارة ، خسارة أخرى من الوقت » .

« إذا ارتكب الإنسان الرذيلة ولم يعلم به أحد فأقلّ ما عليه أن يخجل من الإنسانية » .

« لا يرتقى المرءُ فى سلّم الكمال حتى يعرف قدر نفسه . عرّفنا الله بأقدار أنفسنا » .

« مثل بعض السادات ومربوبيهم مثل بعض الناس يصنعون الصنم بأيديهم ثم يعكفون على عبادته » .

« من أنفق أيامه فى الخير لا يحزن على زوالها ، كمن أنفق أمواله فى اعتقاد العقـــد » .

« كان يقال فى القديم : قيمة المرء ما يحسنه ، فصار يقال اليوم : قيمة المرء ما يخزنه[1] » .

---

(١) « المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٦ .

بعض المراجع

١ — المؤلفات

إبراهيم اليازجى : ديوان العقد .
» : نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد .
» : العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب .
» : رسائل اليازجى
محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها .
منصور طنوس الخورى : الحملة الكسروانية .
يوسف الدبس : موجز تاريخ سوريا
عيسى ميخائيل سابا : العدد ٦ من نوابغ الفكر العربى
جرجى زيدان : آداب اللغة العربية .
» : الفلسفة اللغوية
أنطونيوس شبلى : الشدياق واليازجى .
أنيس الخورى المقدسى : المختارات السائرة .
عيسى إسكندر المعلوف : تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم .
حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى .

٢ — المجلات والنشرات

مجلة الضياء . مجمع المسرات . مجلة النفائس . مجلة المسرة . جريدة الأحوال البيروتية (العدد الصادر فى ١٩—١٢—١٨٩٣)